الباب الثالث

النتائج

Consequences

● الله ، الثقافة ، الثروة وطاحونة المتعة ● المبادلة الكبرى ● الثروة و إله الحرة لعنة الفائزين

سنتناول في هذا القسم المفاهيم التاريخية التي نوقشت في الفصول التسعة السابقة من حيث ارتباطها بالعالم الحديث. في العقد الماضي تحولت بؤرة التوترات في العالم من الأيديولوجي إلى الديني. سيتقصى الفصل العاشر آخر ما توصلت إليه البحوث السوسيولوجية والاقتصادية لاستخلاص الدروس الممكنة حول العلاقة بين الدِين والثروة والأيديولوجيا والتطور الديمقراطي.

إن الانطباع الشعبي الساحق حول الحياة في الغرب الحديث، خاصة في الولايات المتحدة، هو أنها تشكل وجوداً سريعاً وغير آمن وضاغطاً جداً. لكن ما جدوى ثراء الأمة إذا لم تجعلنا أكثر سعادة؟ هناك في حقيقة الأمر مبادلة بين النمو الاقتصادي والسعادة، وهذا ما سيفحصه الفصل الحادي عشر.

وبغض النظر عما إذا كان المال يشتري السعادة أم لا، فإنه يؤثر بالتأكيد في القوة الجيوسياسية. سيبحث الفصل الثاني عشر المسارات المجدولة للثروة والغزو والنفوذ

obeikandl.com

خلال السنوات الخمسمائة الماضية من التاريخ العالمي، خاصة فيما يتعلق بالهيمنة الأمريكية المتزايدة في عالم "أحادي القطبية".

كان النمو الاقتصادي الثابت في القرنين الماضيين غير مسبوق، لكنه لا يغطي غير لحظة من التاريخ. فلو شُبّه كل التاريخ الإنساني بيوم واحد، لما شكّل العصر الحديث المزدهر أكثر من عشر ثواني. ما مدى استمرارية نظام النمو الحديث، والأهم من ذلك ما مدى استقرار العالم الذي تتضاعف فيه الثروة لكل فرد مع كل جيل؟ ستبحث الصفحات الأخيرة من الكتاب الرخاء وتصاعد الحاجات البشرية واستشراف النمو المستمر.

obeikandl.com

الفصل العاشر

الله، الثقافة، الثروة وطاحونة المتعة

God, Culture, Mammon, and the Hedonic Treadmill

إن المال لا يشتري السعادة، لكنه على الأقل يجعلك تعاني وأنت مرتاح.
ليليان بيرنشتين، أم المؤلف

فوائد الثروة

تقوم مسلمة هذا الكتاب على أن الرخاء يتدفق طبيعياً بمجرد أن يكتسب المجتمع العوامل الأربعة الحاسمة: حقوق الملكية والعقلانية العلمية وأسواق رأس المال والنقل والاتصال الحديثين. سيقول القارئ هذا الكلام جيد، لكن هل ثمة طريقة للتحقق بموضوعية من هذه الفرضية؟ فالأمم لا تتيح نفسها بسهولة للتجارب العلمية المنضبطة.

سيلاحظ القارئ النبيه أن الكتاب مع أنه يضم كثيراً من أرقام الناتج المحلي الإجمالي وكثيراً من الرسوم البيانية. لا يوفر بيانات لكل الأمم ويقارنها مثلاً بمعايير حكم القانون. هل توجد هذه المعلومات الكمية الشاملة فعلاً، وإن كانت موجودة فبماذا تخبرنا؟

وعلى أية حال، ما الخير في كل هذه الثروة؟ هل العالم عندما يصبح أكثر رخاء يصبح مكاناً يبعث على السعادة أم العكس؟ كيف تؤثر السياسات الاجتماعية والسياسية على الرخاء والسعادة الإجمالية للمجتمع؟ وما العلاقة بالضبط بين الثروة والسعادة؟

جمع علماء الاجتماع والسياسية والاقتصاد خلال العقود الكثيرة الماضية بيانات

وفيرة لأكثر من مائة أمة تربط الثروة والنمو بكثير من الخصائص السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ويمكن أن نتعامل مع كل دولة باعتبارها "تجربة طبيعية"، مُنِح كل منها هبات اجتماعية ومؤسسية مختلفة. ويمكننا بالتحليل الإحصائي المتأني أن نتوصل إلى بعض الاستنتاجات الحذرة حول أسباب الرخاء وتأثيراته. ومن وسط هذا السيل من الأرقام تنبثق علاقة ساحرة بين الرخاء والرفاه[١] النفسي والديمقراطية والمقاييس الاجتماعية للقيم التقليدية والتمكين الشخصي. حيث يتضح أن الثروة لا تجعلنا أكثر سعادة، لكنها تقوي الديمقراطية كثيراً.

في أواخر خمسينيات القرن العشرين أجرى العالم السياسي سيمور ليبست Seymour Lipset أول تحليل موضوعي من هذا النوع. كان اهتمام ليبست الأساسي منصباً على التطور الديمقراطي، واشتد السجال الأكاديمي آنذاك حول الأهمية النسبية للعوامل السياسية والاقتصادية والدينية على الديمقراطية. كان أنصار نظرية الحتم الديني، على سبيل المثال، يرون أن كل المجتمعات الديمقراطية تقريباً ذات أصول يهودية- مسيحية، بينما احتج معارضوهم على ذلك بالفاشية في إيطاليا وألمانيا. وما أزعج ليبست حقيقة هو أن أحداً من الطرفين لم يكن مستعداً لتحليل كل البيانات المتوفرة. إن النظم السياسية والاقتصادية "قذرة" من المنظور الإحصائي، فأي عالم اجتماع جدير بوصف العالم يستطيع أن يجد بحراً من الاستثناءات حتى للمبادئ الاجتماعية الأساسية للغاية.

بدأ ليبست بمقياس بسيط للتطور الديمقراطي، ثم أجرى تحليلاً إحصائياً لكل العوامل الممكنة التي قد تؤثر على ذلك التطور. ثبت لليبست أن أهم العوامل التي تدعم المؤسسات الديمقراطية هي الثروة والمستوى التعليمي[٢]. وفي العقود التي تلت نشر مقالة ليبست الرائدة في عام ١٩٥٩م، سار علماء الاجتماع والاقتصاد والسياسة على دربه. سنفحص في هذا

---

(١) يشير مصطلح "الرفاه" well-being، على طول الكتاب، إلى الحالة الوجودية الجيدة أو المُرضية، وهي حالة تتسم بالصحة والسعادة والرخاء والرفاهية. وهو يتميز عن دولة الرفاه أو الرفاهية كتطبيق سياسي من جانب، وأيضاً أشمل من السعادة فحسب من جانب آخر [المترجم].

الفصل شريحة البحوث الصغيرة والمثيرة التي ترتبط بأصعب جزء في لغز ثروة العالم، وهو الرابطة بين المال والسعادة والديمقراطية والدين والثقافة. على أننا يجب أن نتقدم بحيطة هنا، إذ من السهل أن ننخدع عندما تبدو العوامل الاجتماعية والسياسية مرتبطة ببعضها. ويكفي المثال الطبي التالي لتوضيح هذه الفكرة. أوضحت الدراسات قبل عقود أن نقاشي البيوت كان معامل ذكاؤهم دون المتوسط. استنتج الباحثون في بادئ الأمر أنه ربما كان في الدهانات شيء يضر بالدماغ. لكن اتضح أن ذلك ليس حقيقياً، حيث أكد التحليل الدقيق أن تأثر معامل الذكاء لم يكن "يعتمد على الجرعة"، بمعنى أن حدته لم تكن تتزايد مع تزايد التعرض المهني. كل ما هنالك هو أن النقاشة لكونها عمل ممل تجذب ذوي معامل الذكاء المنخفض. خلاصة القول إن سلسلة السببية جاءت عكس ما كان متوقعاً: معامل الذكاء المنخفض "يسبب"، إذا جاز التعبير، النقاشة[٢].

عن البروتستانت الأغنياء والمسلمين الفقراء

لا سبيل لتجنب التعامل مع العلاقة بين الدين والنمو الاقتصادي. لقد نبع الرخاء الغربي من شمال أوروبا البروتستانتي، ولذلك يوجد إغراء قوي لاستخدام العقيدة كأداة تحليلية في علم الاقتصاد المقارن. ومن المؤكد أن الفيلسوف وعالم الاجتماع ماكس فيبر عندما نظر إلى الكرة الأرضية قبل أكثر من قرن وجد تفسيراً دينياً لا يقاوم. ذهب الرجل، الذي يعد أحد مؤسسي علم الاجتماع، في كتابه "الأخلاق البروتستانتية والروح الرأسمالية"، إلى أن حركة الإصلاح الديني أطلقت الرأسمالية الحديثة وأن التأكيد الكالفني[٢] على نكران الذات والعمل الشاق جعل البروتستانتية محرك الرخاء العالمي[٣].

تستوقف نفس الملاحظة المراقب الحديث. لماذا، إذن، تأتي الدول الإسلامية والهندوسية بين أفقر دول العالم؟ لا شك أن أديان العالم الرئيسة تحمل بداخلها الكثير

(٢) نسبة إلى المصلح الديني الفرنسي جين كالفن (١٠ يوليو ١٥٠٩م إلى ٢٧ مايو ١٥٦٤م) من قادة حركة الإصلاح الديني ومؤسس المذهب الكالفيني المنتشر في سويسرا وفرنسا [المترجم].

من المتاع الاقتصادي. لكن البيانات، كما سنرى بعد قليل، لا تؤكد ذلك. فالثروة والفقر يرتبطان بالعوامل الاجتماعية والثقافية أكثر من ارتباطهما بالدين.

تنطوي فرضية فيبر على مشكلات حقيقية، وقد فقد دور الكالفنية باعتباره المحرك الأساسي للرخاء الغربي شعبيته بين علماء الاقتصاد والاجتماع الحديثين. فأولاً: لم تصبح جنيف، موطن كالفن، معقل الاقتصاد الرأسمالي الحر. ومع أن القس الجليل وضع حداً للتحريم القديم للإقراض بفائدة، فإن تدخله المستمر في أسعار الفائدة وتسعير السلع تسبب في ضرر حقيقي لاقتصاد جنيف. كانت جنيف عصرذاك متقدمة ومستنيرة في مجالات أخرى، خاصة التعليم العام. لكنها مع ذلك ظلت في حالة ركود اقتصادي لقرون بعد كالفن[٤]. وبعد ثلاثة قرون كاملة من الإصلاح بدأت الأمم البروتستانتية تسمح لليد الخفية عند آدم سميث[٣] بأن تمارس سحرها. وعندما نشر فيبر كتابه في عام ١٩٠٥م كانت النمسا وفرنسا الكاثوليكيتان قد انضمتا إلى مصاف دول العالم الأكثر رخاء.

كما تثبت هيمنة الخلافات[٤] العربية والإمبراطورية العثمانية المبكرة على أوروبا القرون الوسطى العاجزة والمتخلفة بجلاء أن المسيحية لا تقدم مزايا سياسية أو اقتصادية جوهرية على الإسلام. فضلاً عن أن البيانات الحديثة تكشف أن الفارق الاقتصادي ثقافي وليس دينياً. وعدم وجود صلة للدين بالنمو الاقتصادي نتيجة مؤكدة. والثقافة تحددها الجغرافيا، وليس مكان العبادة. تبين المسوح الاجتماعية، على سبيل المثال، أن الكاثوليكي الألماني مع أنه قد يتبنى قيماً أكثر محافظة وتقليدية من البروتستانتي الألماني، فإنه لا يشبه كثيراً الكاثوليكي بأمريكا الجنوبية أو حتى إيطاليا. وتنطبق الملاحظة نفسها على أجزاء العالم الثالث الأكثر ضيقاً في الأفق، حيث تكشف البيانات

(٣) اليد الخفية invisible hand أو يد السوق الخفية تعبير أخذه الاقتصاديون عن آدم سميث، يصف طبيعة السوق ذاتية التنظيم، بمعنى أن السوق ينظم نفسه بنفسه [المترجم].

(٤) خلافات جمع خِلافة، راجع حاشية سابقة للمترجم [المترجم].

أن استشراف المسلم في الهند أو أفريقيا يشبه استشراف مواطنيه المسيحيين أو الهنودس أكثر مما يشبه المسلمين في دول أخرى[٥].

ولعل المثير أكثر من كل ذلك أن المسلم البوسني يشبه الباريسي المتأنق في اللباس ورقة الشعور أكثر مما يشبه أخيه في الدين في دول الخليج. وهناك أيضاً وجه آخر لهذا الموضوع هو الفجوة الثقافية بين سكان إسرائيل السفياريديم والأشكيناز، حيث تعكس ثقافة السفياريديم بقوة ثقافة العالم العربي، بينما تعكس ثقافة الأشكيناز ثقافة الغرب إلى حد كبير. يقول بيرنارد لويس:

> ... إن ما نراه في كثير من مواجهاتهم [السفياريديم والأشكيناز] هو صدام بين المسيحية والإسلام، تتمثلهما بطريقة شاذة أقلياتهما اليهودية السابقة – أي السيفارديم كأقلية سابقة عند العرب والأشكيناز كأقلية سابقة في الغرب – التي تعكس، على نطاق مصغر، كلاً من جوانب القوة والضعف في الحضارتين اللتين كانوا جزءاً منهما[٦].

يقطع ماكسيم روبنسون Maxime Rodinson، أحد مراقبي الإسلام الأكثر عمقاً، دون مواربة بأنه لا يوجد في تعاليم الإسلام ما يتناقض مع الرأسمالية[٧]. وتكفي نظرة خاطفة على أكثر الدول تقدماً في العالم الإسلامي، مثل ماليزيا وتركيا، لكي تؤكد ذلك. بل إن شيئاً في دين المسلمين الورعين من الشرق الأوسط وباكستان والهند، على نحو أكثر تحديداً، لا يمنعهم عن استخدام أدوات الرأسمالية التجارية بعد أن يهاجروا إلى الغرب العلماني.

لا يعني ذلك أن الدين لا يؤثر مطلقاً في الاقتصاد. فنظرياً، على الأقل، تمتلك المسيحية ميزة عقيدية متفردة مقارنة بالمعتقدات الأخرى، وهي تعبيرها الواضح عن الفصل بين الكنيسة والدولة: "اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله"[٨].

لكن منذ دخول الإمبراطور قسطنطين في المسيحية وحتى جنيف في زمن كالفن كان هذا الفصل مخترقاً ولا يُلتَزم به قط. ومنذ العصر الروماني المبكر حتى ما بعد مارتن لوثر كان موقف الكنيسة من الرأسمالية التجارية على اليمين قليلاً من موقف كارل ماركس. وكما رأينا في الفصل الأول، فقد كان كل من أوغسطين وألاكويني معاديين

بوضوح للأعمال التجارية، وعلى مدار الألفية الأولى طورت الكنيسة عقيدة كانت تعارض إقراض المال وتكوين رأس المال. وربما كان عداء الكنيسة المبكرة للعقلية الرأسمالية السبب الرئيس لتخلف أوروبا القرون الوسطى مقارنة بالعالم الإسلامي في نفس الوقت. ومن المفارقات أنه لولا البنية التحتية المالية التي وفرها اليهود لأوروبا لربما اجتاحها الأتراك. توضح باربرا تشمان مدى معاداة الرأسمالية وكراهيتها في أوروبا على النحو التالي:

> إن القانون التجاري، لكي يضمن ألا يكتسب أحد ميزه على غيره، حظر التجديد في الأدوات أو الأساليب، أو البيع بأرخص من الأسعار المحددة، أو العمل حتى وقت متأخر بالضوء الصناعي، أو توظيف صبية إضافيين أو الزوجة أو أطفال دون سن البلوغ، أو الإعلان عن السلع أو الثناء عليها بما يلحق الأذى بالآخرين[٩].

والهندوسية إحدى ديانات العالم الرئيسة التي تشكل تعاليمها عائقاً مباشراً للتقدم الاقتصادي لاتباعها. فنظام الطوائف السخيف بها يقسم البشر على هرم يبارك الحالة التعسة لطبقاته الدنيا، ويحرّم الرخاء في هذا العالم في مقابل الفوز في العالم الآخر[٥].

يقدم الدين، فحسب، عدسة يرشح المجتمع تقاليده من خلالها. والمعاملة المختلفة للنساء في العالم الإسلامي تؤكد هذه النقطة. ففي بعض المجتمعات الإسلامية يعمل النساء والرجال معاً في مكان العمل على قدم المساواة، بينما تمنع التقاليد في مجتمعات أخرى النساء من دخول مكان العمل. ظاهرياً يبدو أن الإسلام يهدر نصف رأسماله البشري، بما يضر باقتصادات الدول الإسلامية. في حين أن الثقافات الضيقة للمجتمعات التقليدية هي التي تتسبب في أغلب الضرر لهذه الدول. وفي شبه الجزيرة العربية وأماكن أخرى يُستخدم الإسلام والقرآن كمجرد ستار لتبرير محرمات المجتمع الصحراوي المنعزل

---

(٥) يحظر دستور الهند الحديثة ممارسة النبذ. كما تدير الحكومة الهندية أكبر برنامج عمل توكيدي في العالم يستهدف أعضاء الطوائف الأدنى. انظر Shashi Tharoor, India: From Midnight to the Millennium, (New York: Perennial, 1998), and Francis Fukuyama, The End of History and the Last Man, 228.

السابقة في الوجود على بعثة النبي محمد بآلاف السنين. ولو دخل العرب – جدلاً – في اليهودية أو المسيحية، وليس الإسلام، لظل مجتمع شبه الجزيرة العربية المعاصر أصولياً كما هو اليوم.

هرم السعادة

خلاصة القول إن حدس فيبر للارتباط بين البروتستانتية والرخاء أثبت أنه ثمين. فقد ألقى علم الاجتماع الذي ابتكره ضوءاً كان مطلوباً بشدة على العوامل الدينية والثقافية التي تؤثر على البناء السياسي والنمو الاقتصادي. بل إن أحد أقوى الارتباطات بالسعادة هي إدراك الفرد أنه يسيطر على حياته. وقد تأكد الارتباط الصلب بين الاستقلال الفردي والسعادة بالمسوح التي أجريت في عدد كبير من الدول، من الأرجنتين حتى زمبابوي[١٠].

نشر عالم النفس أبراهام ماسلو "هرم الحاجات" في خمسينيات القرن العشرين. يقدم هذا المفهوم، إلى جانب البحوث الاجتماعية الأحدث، نموذجاً قوياً يمكن من خلاله فحص العلاقة بين الثروة والديمقراطية.

لاحظ الأكاديمي الشاب ماسلو Malsow أن بعض الدوافع الإنسانية تحتل أسبقية على ما عداها. والحاجة التي تحتل المكانة الأساسية الأولى هي التنفس. فإذا حرمك أحد من الهواء فسوف تموت في أقل من دقيقة. والحرمان من الهواء يمحو كل الحاجات والدوافع الأخرى، كالعطش والجوع وحتى الألم. وبعد استئناف التنفس فقط يمكن الانتباه إلى هذه الأحاسيس الأخرى. وتمثل إسهام ماسلو الكبير في تحديد هرم هذه الحاجات.

والإنسان بعد أن يشبع هذه الحاجات "الفسيولوجية" الفورية إلى الأوكسجين والماء والطعام والدفء، يستطيع أن يتقدم إلى تلبية الحاجات إلى الأمان: الأمن الشخصي

والعمل الثابت. وبعد تلبية هذه الأخيرة تأتي حاجات الانتماء، مثل حب الزوج/ الزوجة والأسرة والجماعة. وفي الأخير تأتي الحاجات إلى التقدير، كالاحترام (متميزا عن الحب) من الأقران واحترام النفس.

وكلما ارتقى المرء على الهرم، زاد شعوره بالأمان الداخلي. وقد أصبحت أعلى نقطة على الهرم تشكل الكأس المقدسة للعصر الجديد: "تحقيق الذات". كان ماسلو غامضاً حول ما يعنيه بهذا المصطلح، لكنه وصف خصائص الأشخاص الذين بلغوا هذه الحالة السامية، مثل لينكولن وغاندي. وهؤلاء الناس بعيدون عن الأنانية، ويميزون بين الوسائل والغايات، ويحلون المشكلات بدلاً من الشكوى، ويرشحون التأثيرات المزعجة لضغط الأقران.

أما الأفراد الذين يعيشون قريباً من قاع الهرم فيعملون وفقاً للغريزة ويصعب عليهم التفكير المجرد. وهؤلاء لا يتاح لهم إلا النذر اليسير من الاختيار الشخصي، ولذلك يتأذى رفاههم كثيراً.

لقد وفر هرم ماسلو لعلماء الاجتماع حول العالم إطاراً يمكنهم من خلاله أن يقيسوا ويفسروا الأنواع المختلفة من البيانات النفسية والاجتماعية، خاصة مقاييس

الرفاه. من أكبر هذه الجهود المسح العالمي للقيم[٦] ومسح البارومتر الأوروبي[٧]. بدأ المسح العالمي للقيم في ١٩٨١ بإجراء دراسات على عشر دول أوروبية، وقد دفعت نتائجه العظيمة الباحثين لكي يوسعوه إلى خمس وستين دولة تضم ٨٠٪ من سكان العالم. ويقوم معهد البحوث الاجتماعية ISR بجامعة مشيغان في الوقت الحاضر بتنسيق هذه الجهود.

لا يركز معهد البحوث الاجتماعية بالدرجة الأولى على المجموعات الدينية والقومية، وإنما على سمات شخصية محددة بسهولة وقابلة للقياس. يستخدم باحثو المعهد هذه الأساليب لسبر أغوار الارتباطات بين الشخصية والثقافة والدين والسياسة والرخاء.

مقاييس الديمقراطية

لكن كيف يقيّم العلماء الاجتماعيون التفاعل بين الثقافة والسعادة والثروة والديمقراطية؟ إنهم يتقدمون بالطريقة نفسها التي يستخدمها أي عالم: صياغة فرضيات وجمع بيانات يمكن من خلالها اختبار تلك الفرضيات. تتمثل الأداة الأساسية في هذا المجال المعقد في إجراء مسوح لكثير من المتغيرات الاجتماعية عبر كثير من الدول. من هذه المتغيرات مقياس "البقاء/التعبير عن الذات" survival/self expression (S/SE) الذي ابتكره المسح العالمي للقيم لقياس اتجاهات الشخص نحو التفكير والتعبير

(٦) المسح العالمي للقيم World Values Survey مسح دوري للتغير السياسي والاجتماعي- الثقافي تقوم به شبكة من العلماء الاجتماعيين على مستوى العالم وتنسقه هيئة مركزية هي جمعية المسح العالمي للقيم. وفر المسح منذ جولته العالمية الأولى في عام ١٩٩٨م بيانات حول القيم السياسية والثقافية في كل ثقافات العالم، ومن بينها المجتمعات الإسلامية والعربية. وكان من البيانات المبكرة التي نشرها بيانات تؤكد تبني الشعوب العربية للديمقراطية، قبل أكثر من عقد من الثورة الديمقراطية العربية، وقد استخدم المترجم هذه البيانات في كتاب له تحت النشر بعنوان "أزمة الثقافة العربية محاولة تفسيرية" [المترجم].

(٧) البارومتر الأوروبي Eurobarometer سلسلة من البحوث تُجرى بانتظام منذ عام ١٩٧٣م لصالح اللجنة الأوروبية، تنتج تقارير حول الرأي العام والقضايا ذات الصلة بالاتحاد الأوروبي في الدول الأعضاء [المترجم].

المستقلين. معنى ذلك أن مقياس "البقاء/التعبير عن الذات" يقيس مدى صعود الفرد على هرم ماسلو. على سبيل المثال يسأل الباحثون المستجيبين عما إذا كانوا يثمّنون التعبير عن الذات أكثر من الأمن المادي، وعما إذا كان سبق لهم أن وقّعوا عريضة، ومدى ثقتهم في الآخرين. عندما تكون غالبية الإجابات بالإثبات يعني ذلك ارتفاع درجة الفرد على مقياس "البقاء/التعبير عن الذات"، وحين تكون غالبية الإجابات بالنفي تكون درجة الفرد على المقياس منخفضة. وكلما ارتفعت درجة الفرد علت مكانته على هرم ماسلو وكان أكثر سعادة.

بحث عالما الاجتماع رونالد إنجلهارت Ronald Inglehart من جامعة مشيغان وكريستيان ويلزل Christian Welzel من جامعة بريمين الدولية الارتباط بين الدرجة على بُعد "البقاء/التعبير عن الذات" وقوة المؤسسات الديمقراطية، ووجدا ارتباطاً عالياً بين متوسط درجة الدولة على بُعد "البقاء/التعبير عن الذات" وقوة ديمقراطيتها.

إن ارتباط بُعد "البقاء/التعبير عن الذات" بالديمقراطية لا يفاجئنا. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: ما هي الدجاجة؟، وما هي البيضة؟ من السهل أن نتخيل أن الديمقراطية تؤدي إلى تعبير أعلى عن الذات، تماماً كما يؤدي التعبير عن الذات إلى ديمقراطية أكبر. تكشف بياناتهما عن علاقة مفاجئة، وهي أن الرابط بين الاثنين هو الثروة ذاتها. فصَل إنجلهارت ويلزل سلسلة السببية بأداة إحصائية تعرف باسم "الارتباطات العابرة المتأخرة" lagged cross-correlations. وعلى وجه التحديد قرر الباحثان أن ارتباط "البقاء/التعبير عن الذات" في عام ١٩٩٥م بمؤشر الديمقراطية في عام ٢٠٠٠م كان أعلى بكثير من ارتباط "البقاء/التعبير عن الذات" في عام ٢٠٠٠م بمؤشر الديمقراطية في عام ١٩٩٥م. (تم حساب مؤشر الديمقراطية بجمع درجة الحقوق المدنية والسياسية كما يقيسها بيت الحرية[٨] ومؤشر الفساد لمنظمة الشفافية الدولية[٩]).

---

(٨) بيت الحرية Freedom House مؤسسة غير حكومية مقرها مقاطعة واشنطن، تأسست في عام ١٩٤١م، تجري بحوثاً حول الديمقراطية والحرية السياسية وحقوق الإنسان حول العالم، وتصدر تقريراً سنوياً يقيّم درجة الحريات الديمقراطية في بلاد العالم [المترجم].

(٩) منظمة الشفافية الدولية Transparency International منظمة مدنية عالمية تقود محاربة الفساد، تأسست في عام ١٩٩٣م، تصدر تقارير سنوية حول حالة الفساد في دول العالم [المترجم].

معنى ذلك أن الديمقراطية الحالية ترتبط بالدرجة السابقة على بُعد "البقاء/ التعبير عن الذات"، بينما لا ترتبط الديمقراطية السابقة بالدرجة الحالية على بُعد "البقاء/التعبير عن الذات". تقترح هذه البيانات أن السكان ذوي التمكين والدافعية الذاتية والقادرين على صنع اختيارات حرة يقوون الديمقراطية، وليس العكس. لا يثبت ذلك أن التمكين الشخصي (المستوى العالي لبُعد "البقاء/التعبير عن الذات") ينتج الديمقراطية، لكنه يتفق كثيراً مع ذلك الاستنتاج.

وبعد ذلك فحص إنجلهارت وويلزل العلاقة بين التعبير عن الذات والثروة الشخصية[١٠]. ووجدا هنا أيضاً ارتباطاً قوياً بين الثروة والتعبير عن الذات، وكذلك اقترح نفس أسلوب الارتباطات العابرة المتأخرة أن الثروة هي التي تؤدي إلى مستوى أعلى على بُعد "البقاء/التعبير عن الذات"، ومن ثم إلى ديمقراطية أقوى، وليس العكس.

من الواضح أن هذا النموذج يبالغ في تبسيط عملية شديدة التعقيد. نعم تقوي الديمقراطية إحساس المواطن بالتمكين. لكن العكس – أن تمكين المواطن ينتج الديمقراطية – يعد دينامية أقوى كثيراً. يتفق ذلك مع تطورات حديثة. لقد أثبتت فترة أواخر القرن العشرين استحالة تصدير المؤسسات الديمقراطية إلى الدول ذات الجماهير الصامتة والخائفة. والخبرة الأخيرة في البوسنة وكوسوفو تثبت ذلك، حيث تطلبت صيانة الجهاز الحكومي الهش الوجود المسلح الهائل وطويل المدى لجنود حفظ السلام التابعين للأمم المتحدة. وينطبق القول نفسه على الحالة الضامرة "للديمقراطية" في دول فقيرة مثل باكستان. تقدم الهند مثالاً أقل تطرفاً، فمؤسساتها الديمقراطية ضعيفة، على

(١٠) استخدم ويلزل وإنجلهارت مؤشراً للثروة أسموه "موارد القوة" power resources. يختلف هذا المؤشر عن الناتج المحلي الإجمالي البسيط لكل فرد في أنه يجمع المؤشرات القياسية للثروة مع المستوى التعليمي ومتوسط العمر المتوقع، من بين أشياء أخرى، وكذلك يقيس استواء توزيعها بين السكان. يرتبط مؤشر "موارد القوة" ببُعد "البقاء/التعبير عن الذات" أعلى بكثير من ارتباطه بالناتج المحلي الإجمالي البسيط لكل فرد. رونالد إنجلهارت اتصال شخصي.

الأقل بالمعايير الغربية، بسبب نظام الطوائف المذل، ورغم أن نظام الطوائف ألغي قانونيا، فإنه لا يزال يمارس تأثيراً ثقافياً قوياً.

تعتقد الولايات المتحدة وحلفاؤها (أو يقولون إنهم يعتقدون)، في وقت كتابة هذا الكتاب، أنهم قادرون على ازدراع الديمقراطية في العراق. تقترح مناقشتنا السابقة أن ذلك قد يكون وهماً خطيراً. بل وأكثر من ذلك، إذا كانت الديمقراطية في العراق وهما[١١]، فإنها في أفغانستان حلماً محموماً.

نظرية لكل شيء

باستطاعتنا أن نجمع أطروحة هذا الكتاب مع فرضية ويلزل/إنجلهارت لتوليد المخطط التالي:

لكن هذا النموذج ليس بلا عيوب. يسير النموذج الموضح بالمخطط السابق، ولو بدرجة أقل، من اليسار إلى اليمين. فلا جدال في أن الديمقراطية المتزايدة تعزز تمكين المواطنين والعوامل الأربعة. لكن بيانات ويلزل وإنجلهارت لا تترك مجالاً للشك في أن

(١١) ثبت بالفعل أن الديمقراطية التي زرعها الأمريكيون في العراق وهم كبير، لكن ليس لأن الشعب العراقي غير مؤهل للديمقراطية أو رافض لها بسبب ثقافته أو دينه أو غير ذلك، وإنما بسبب الطائفية التي زرعها الاحتلال الأمريكي مع الديمقراطية، وتغذيها أطراف خارجية من مصلحتها أن تكون الكلمة العليا في العراق للطائفة والانتماء الطائفي وليس للانتماء للوطن [المترجم].

قوة الدفع الأساسية في هذا النموذج تندفع من اليمين إلى اليسار، وليس من اليسار إلى اليمين. ومع أن الديمقراطية مرغوبة جداً في ذاتها، فإن البيانات تثبت أن فوائدها الاقتصادية المباشرة تكون في أحسن الأحوال محل جدال.

ماذا عن المستوى التعليمي، ذلك المحدِد الرئيس الآخر للديمقراطية عند ليبست؟ يقوي التعليم الديمقراطية بالدرجة الأولى من خلال تأثيراته الاقتصادية. فالمجتمع سيئ التعليم لا يستطيع أن يتمكن من التقنيات الجديدة التي تحسن الإنتاج، وبذلك يحكم على نفسه بالفقر. لكن حتى السكان الأعلى تعليماً يمكن أن يؤولوا إلى المصير نفسه إذا لم تتوفر لهم حوافز اقتصادية فعالة. وفي كلتا الحالتين – الدول الفقيرة لأن شعبها سيئ التعليم والدول جيدة التعليم لكنها فقيرة بسبب مؤسسات المِلكية غير المواتية – سيؤدي الفقر الناتج إلى إعاقة التطور الديمقراطي.

لقد أنتجت الشيوعية دولاً كثيرة جيدة التعليم، لكن ذلك أخفق في أن يدفع اقتصاداتها ونظمها السياسية إلى الأمام. يتمثل الفشل الأوضح بين هذه الدول في كوبا، التي حققت في السنوات الأربعين التي تلت ثورتها تقدماً مثيراً في التعليم على كل المستويات وخفضّت الأمية من حوالي ٣٥٪ إلى أقل من ٢٪. لكن في نفس الفترة انخفض الناتج المحلي الإجمالي الحقيقي لكل فرد في كوبا بمعدل الثلث، رغم الإعانات المالية الهائلة من الاتحاد السوفيتي، وهو إنجاز متفرد في فترة زاد فيها الناتج المحلي الإجمالي الحقيقي لكل فرد في بقية العالم أكثر من ضعفين. يقترح التحليل السابق أيضاً أن فقر كوبا في ذاته ساعد فيديل كاسترو في جعل بلاده واحدة من أكثر دول العالم في القمع.

كما يدعم سجل نجاحات الدول غير الشيوعية، خاصة بين اقتصادات آسيا القوية الجديدة، فرضية أن الديمقراطية تنتج عن الرخاء. ففي أغلب الأحيان تتحول الدول المزدهرة إلى الديمقراطية، وليس العكس. ومن الأمثلة المبكرة على ذلك اليابان التي سمحت حكومات ميجي فيها بوجود جهاز تمثيلي شكلي، تطور سريعاً إلى نظام

برلماني قوي مع ازدياد رخاء الأمة. في بداية فترة ميجي كان شرط المِلكية الكبيرة يؤهل أقل من نصف مليون ياباني فقط للتصويت. وقد عمل الرخاء المتزايد على تمكين الفلاحين اليابانيين وإجبار الحكومة على التحول الليبرالي التدريجي إلى حد التصويت العمومي (للذكور) في عام ١٩٢٥م. وفي الثلاثينيات تعرض التحول الديمقراطي لنكبة مع وقوع الحكومة فريسة لانقلاب عسكري بطيء وشامل. ولا شك في أن مؤسسات الديمقراطية النشطة في اليابان اليوم نتجت بالدرجة الأولى عن رخاء البلاد السريع فيما بعد الحرب، وليس العكس[١١].

في مديح الطغاة

يبدو أن احتمال نجاح الجمع الحالي بين الليبرالية الاقتصادية والقمع السياسي في الصين أقوى من مثيله في الحالة الروسية. وكذلك حدث "مثال مزدوج" نادر لهذه الظاهرة في شيلي، التي قام فيها سلفادور الليندي ووزير زراعته الماركسي جاك شونشول Jacques Chonchol بتطهير الدستور من فقرة حقوق المِلكية، وأستوليا على الأراضي، وعوقا اقتصاد البلاد. مهد ذلك الطريق لظهور الطاغية الفاشي أوغسطو بينوشيه الذي أصلح الدمار الاقتصادي بإعادة تأسيس حقوق المِلكية وتحرير الأسواق. قوى الرخاء الجديد مؤسسات الأمة الديمقراطية، وأدى في النهاية إلى سقوط الدكتاتور. حدث تحول مماثل من دكتاتورية يمينية تحترم المِلكية إلى ديمقراطية ليبرالية في أسبانيا. عندما سُئل لوريانو لوبيز رودو Laureano Lopez Rodo أحد وزراء الاقتصاد في حكومات فرانكو متى ستصبح أسبانيا جاهزة للديمقراطية، قدم إجابته الشهيرة بأن الديمقراطية ستأتي عندما يتجاوز متوسط الدخل ٢٠٠٠ دولار سنوياً. وعندما سقطت دكتاتورية فرانكو أخيراً في عام ١٩٧٥م، كان متوسط الدخل في أسبانيا ٢٤٤٦ دولاراً[١٢].

---

(١٢) في مجال تعمه الفوضى مثل العلم السياسي تحتاج النظرية غالباً إلى مساعدة المصادفة، مثل وفاة فرانكو في عام ١٩٧٥م وتركه الأمير ذي الميول الديمقراطية خوان كارلوس في السلطة. انظر Fukuyama, 110.

توصل فرانسيس فوكوياما، العالِم السياسي بجامعة جونز هوبكنز، إلى استنتاج مماثل في عمله القوي في فكرته، وإن ظل خلافياً، "نهاية التاريخ والإنسان الأخير". لاحظ فوكوياما أن الديمقراطية الفلبينية أخفقت في إنجاز إصلاح زراعي حقيقي بسبب الأقلية المالكة القوية. وتساءل عما إذا كانت "الدكتاتورية يمكن أن تكون فعالة أكثر بكثير في بناء المجتمع الحديث، كما كانت الحال حين كانت القوة الدكتاتورية تُستخدم لإنجاز الإصلاح الزراعي في أثناء الاحتلال الأمريكي لليابان"[١٢].

يضيف الارتباط بين الرخاء والديمقراطية بُعداً مثيراً لزعم عالم الاقتصاد الحائز على جائزة نوبل أمارتيا شين Amartya Sen بأن المجاعة لا تحدث في المجتمعات الديمقراطية الحقيقية لأن لدى الصحافة الحرة والسياسيين الطموحين دوافع قوية لكشف الجوع وعلاجه[١٣]. ومع أن ذلك حقيقي بلا شك، فإن غياب الجوع في المجتمعات الديمقراطية الحقة يعد كذلك ناتجاً عرضياً لحقيقة أن الرخاء نفسه يشجع الديمقراطية، ويقدم في الوقت نفسه علاجاً ممتازاً للجوع.

التقليدية والعقلانية

يقيس المسح العالمي للقيم بُعداً اجتماعياً أساسياً آخر هو قوة "القيم التقليدية". تشدد المجتمعات الأصولية، أياً كان دينها، على القيم التقليدية مثل تحريم الإجهاض والطلاق والشذوذ الجنسي. وعادة ما تكون المجتمعات التقليدية سلطوية ومتزمتة ويهيمن عليها الذكور[١٤].

يحدد المسح العالمي للقيم درجة بُعد "التقليدي/العقلاني العلماني" بالحصول على إجابات لعبارات مثل "الله مهم جداً في حياتي" أو "لدي إحساس قوي بالفخر الوطني" أو "أؤيد مزيداً من الاحترام للسلطة". والإجابة بالإثبات على هذه العبارات تضع المستجيب على الطرف "التقليدي" للمقياس (بمعنى أنها تشير إلى درجة سلبية على بُعد

"التقليدي/العقلاني العلماني")، وتضعه الإجابات بالنفي على الطرف "العلماني-العقلاني" للمقياس (بمعنى أنها تشير إلى درجة إيجابية على بُعد "التقليدي/العقلاني العلماني").

تميل المجتمعات ذات الدرجات العالية على بُعد "التقليدي/العقلاني العلماني" لأن تكون أكثر غنى من المجتمعات ذات الدرجات المنخفضة. لكن تأثير بُعد "التقليدي/العقلاني العلماني" على الثروة ليس في قوة تأثير درجة بُعد "البقاء/التعبير عن الذات". يقيس بُعد "التقليدي/العقلاني العلماني" أساساً قدرة الجماعة على دحض أو تفنيد معارفها، وهو مفهوم ناقشناه في الفصل الثالث. فالمجتمع ذو الدرجة العالية سيتقبل بسرور التحديات لأي جزء من قاعدته المعرفية، في حين أن المجتمع ذا الدرجة المنخفضة سيتمسك بقوة بمعتقداته مهما كانت المعلومات المناقضة لها مقنعة.

ترتبط الدرجة المنخفضة على بُعد "التقليدي/العقلاني العلماني" بقوة بالاقتصاد الزراعي، رغم أن الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية يشكلان استثناء لذلك نوعاً ما. تتغير المعتقدات الشخصية ببطء أكثر في المزرعة، التي تثمّن عالياً استقرار الأسرة والجماعة، ولذلك لا يفاجئنا الارتباط بين الدرجات المنخفضة في بُعد "التقليدي/العقلاني العلماني" والقطاع الزراعي الكبير. بينما ترتبط الدرجة على بُعد "البقاء/التعبير عن الذات" بقوة بحجم اقتصاد الخدمات، حيث يقضي عمال الخدمات أيام عملهم في التصريح بالآراء وصنع مئات، أو حتى آلاف القرارات، وهذه بيئة تشجع الاستقلالية والتعبير الشخصي.

إن الجمع بين درجات بُعد "البقاء/التعبير عن الذات" وبُعد "التقليدي/ العلماني-العقلاني" يقسم العالم إلى مجموعات دينية/ثقافية. يوزع الشكل رقم (١٠,١)

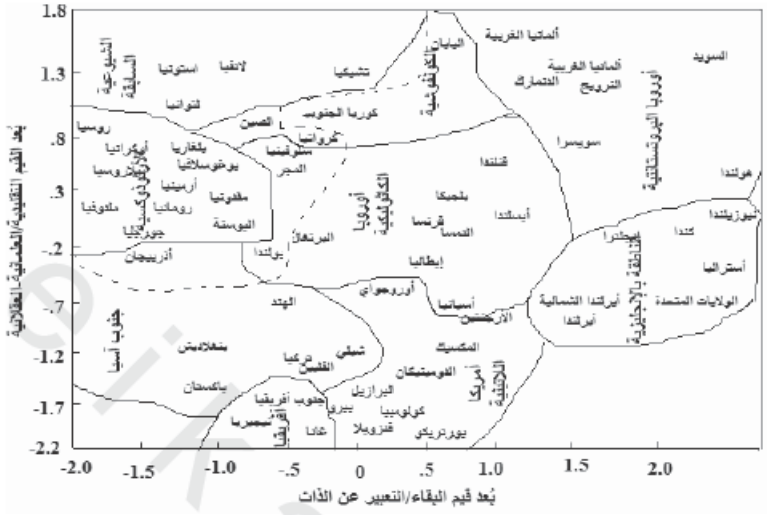

الشكل رقم (١٠,١). تفاعل الدين والثقافة والتعبير عن الذات والقيم التقليدية.

المصدر: Reproduced with permission from Inglehart and Wayne E. Baker, "Modernization, Cultural Change, and the Persistence of Traditional Values," American Sociological Review 65 (Feb. 2000), 29.

الدول على شبكة ثنائية الأبعاد، حيث تُمثَل درجة بعد "التقليدي/العقلاني العلماني" على محور والدرجة على بُعد "البقاء/التعبير عن الذات" على المحور الآخر. تتجمع الدول الأوروبية البروتستانتية في أعلى يمين الشكل، بدرجات عالية على بُعد "البقاء/التعبير عن الذات" وبُعد "التقليدي/العقلاني العلماني". ويمكن أن نصف هذه الدول الغنية بأنها "علمانية تماماً". وتقع الدول الناطقة بالإنجليزية بين منتصف وأسفل يمين الشكل، وهي "محافظة تماماً". وتتجمع دول ما بعد الشيوعية – "الملحدون الصامتون" – في أعلى يسار الشكل، بينما يحتل عالم جنوب آسيا، الذي يتكون أساساً من الدول الإسلامية والهند، أسفل يسار الشكل، وهم "الأصوليون الصامتون".

يوضح الشكل رقم (١٠,٢) الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد لنفس مجموعة الدول الواردة في الشكل رقم (١٠,١). يقول هذا الشكل الكثير حول العلاقة بين الثروة والقيم الشخصية/الثقافية، حيث يكون الأغنياء مختلفين كثيراً. إن التحرك من اليسار إلى اليمين على المحور السيني ("بُعد "البقاء/التعبير عن الذات") تزيد معه الثروة. وفي المجتمعات الغنية يكون الأفراد أكثر سعادة، وكذلك يشعرون بالحرية في التعبير وتحدي الحكومة وصنع اختياراتهم الحياتية بأنفسهم.

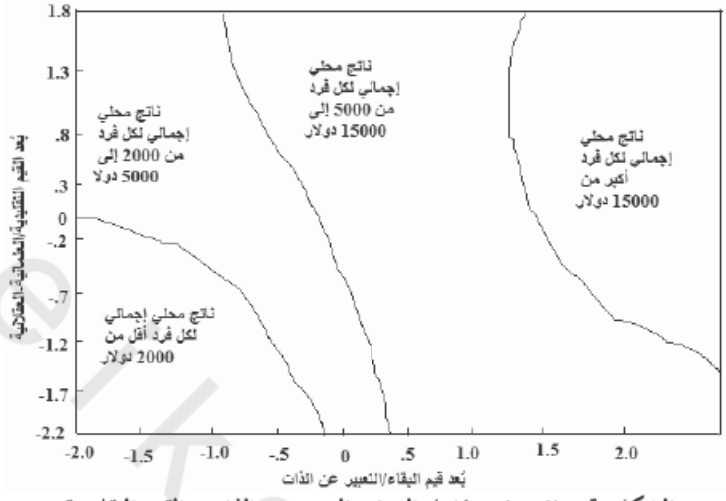

الشكل رقم (١٠,٢). تفاعل الرخاء والتعبير عن الذات والقيم التقليدية.

المصدر: Reproduced with permission from Ronald Inglehart and Wayne E. Baker, "Modernization, Cultural Change, and the Persistence of Traditional Values," American Sociological Review 65 (Feb. 2000), 30.

على المحور الصادي (بُعد "التقليدي/العقلاني-العلماني")، من الأسفل إلى الأعلى، تصبح هذه العلاقة أقل وضوحاً، فالمجتمعات التقليدية تميل لأن تكون أقل غنى، لكن العلاقة بين الثروة وبُعد "التقليدي/العقلاني العلماني" ليست بقوة العلاقة بين الثروة والتعبير عن الذات (بمعنى أن التحرك من اليمين إلى اليسار يعبر علامتين أو ثلاث من علامات الثروة، بينما التحرك لأعلى يعبر علامة أو اثنتين فقط). ومع أن فيبر ربما كان محقاً بشأن الارتباط بين الرخاء والبروتستانتية، فإن ذلك كان يرجع فقط لأن البروتستانت كانوا ... محتجين[١٣]. ولا علاقة للتقوى بذلك.

إن الولايات المتحدة بدرجتها المنخفضة على بُعد "التقليدي/العلماني-العقلاني" الموضحة في الشكل رقم (١٠,١) تعتبر شاذة بين الدول الغنية. يُكذّب ذلك الوهم الأمريكي بأنهم يعيشون في صدارة التقدم الاجتماعي، حيث تسبقهم أغلب دول

(١٣) تذكر أن كلمة "بروتستانتي" تعني "المحتج" أو "المعترض"، لأن حركتهم كانت احتجاجاً أو اعتراضاً على الكنيسة المؤسسة [المترجم].

شمال أوروبا في درجات "البقاء/التعبير عن الذات"، وتتساوى في الدرجة على بُعد "التقليدي/العقلاني العلماني" مع بنغلاديش.

إن أفقر الأماكن وأبعدها عن السعادة على الأرض هي تلك التي تتجمع في أسفل يسار الشكلين رقمي (١٠,١) و(١٠,٢)، وهي المجتمعات التقليدية الفقيرة التي لا يستطيع المواطنون التعيسون فيها أن يعبروا بحرية عن آرائهم أو ينفذوا اختياراتهم الحياتية.

إن الوضع المبين في الشكلين رقمي (١٠,١) و(١٠,٢) ليس ناتجاً بالكلية عن قوى ساكنة تضرب بجذورها في الماضي. فلولا الخمسين سنة من الشيوعية لظهرت دول البلطيق وجمهورية التشيك نفسها على الأغلب في الركن العلوي الأيمن من الشكل مع بقية إخوانهم الأوروبيين الشماليين. تكشف البيانات التي جُمعت على فترات زمنية طويلة أن تغييرات مهمة يمكن أن تحدث في بُعد "البقاء/التعبير عن الذات" وبُعد "التقليدي/العقلاني- العلماني" على فترات قصيرة نسبيا، كما يتضح في الشكل رقم (١٠,٣).

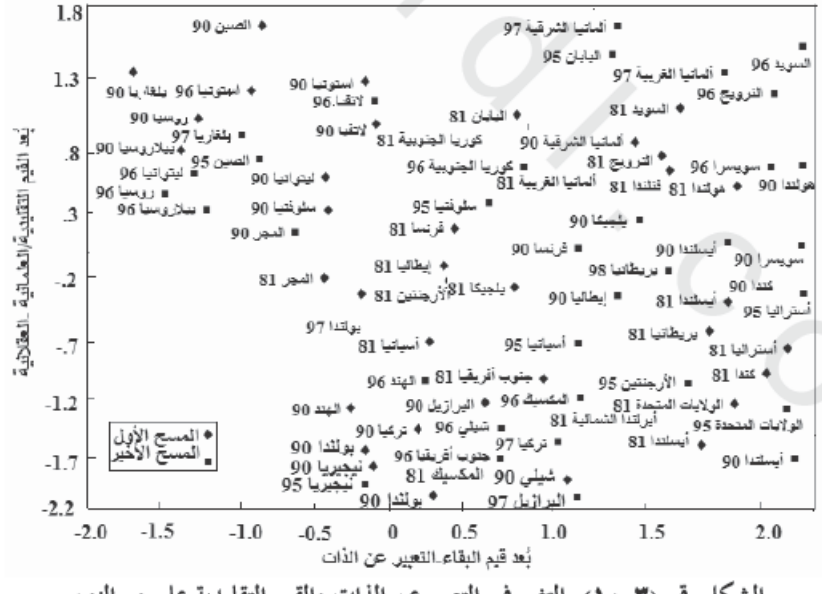

الشكل رقم (١٠,٣). التغير في التعبير عن الذات والقيم التقليدية على مر الزمن.

المصدر: Reproduced with permission from Ronald Inglehart and Wayne E. Baker, "Modernization, Cultural Change, and the Persistence of Traditional Values," American Sociological Review 65 (Feb. 2000), 40.

إن التحركات المبينة في الشكل رقم (١٠,٣) منظمة، وليست مجرد تقلبات عشوائية أو خطأ تجريبياً. فبمرور الوقت زادت كل الدول المتقدمة تقريباً درجاتها في "البقاء/ التعبير عن الذات" بشكل ملحوظ، بينما تحركت درجات دول العالم النامي بشكل ضعيف نسبياً. يكشف الشكل رقم (١٠,٣) نتيجة مثيرة بدرجة أكبر حول دول ما بعد الشيوعية، وهي أن معظم هذه الدول عندما واجهت الانهيار الاقتصادي، هبطت درجاتها في بعد "البقاء/التعبير عن الذات". تعزز هذه النتيجة القول إن الرخاء يؤثر على "البقاء/التعبير عن الذات"، الذي يعد منبئاً بالسعادة الشخصية، وليس العكس. وحيث إن قيم "البقاء/التعبير عن الذات" تدفع الديمقراطية، فإن ذلك لا يبشر بالخير للعالم السوفيتي السابق.

يوضح تجمع الدول وفقاً للثقافة في الشكل رقم (١٠,١) أن الثقافة تؤثر على الثروة وقيم "البقاء/التعبير عن الذات" والقيم "التقليدية/العقلانية-العلمانية"، أكثر من تأثير الدين. تؤكد ذلك أساليب إحصائية متطورة توضح أن درجات قيم "البقاء/التعبير عن الذات" والقيم "التقليدية/العلمانية-العقلانية" ترتبط بعوامل كثيرة، منها التاريخ الشيوعي ونسب السكان الذين يعملون في قطاعات الخدمات والصناعة والزراعة، بعيداً عن الثروة أو الدين[١٥].

وكما ناقشنا في موضع سابق، فإن درجات قيم "البقاء/التعبير عن الذات" ترتبط أكثر بالثروة. ويبدو أن الثقة المتبادلة بين الناس هي العامل الأساسي الذي يربط الثروة بقيم "البقاء/التعبير عن الذات". فالأفراد عندما يزدادون غنى ويرتقون على هرم ماسلو يصبحون أكثر تقبلاً للغرباء وثقة فيهم. وقد أصبح علماء الاقتصاد والاجتماع أكثر وعياً بظاهرة "شعاع الثقة"، التي تقول إنه كلما اتسعت حدود الأسرة الضيقة كان الشخص مستعداً لأن يصدق كلام الآخرين ويعتمد على أفعالهم. ويرى فوكوياما أنه حتى داخل الدول يتفاوت شعاع الثقة كثيراً. وهو يلقي باللائمة على حالة صقلية

الاقتصادية السيئة مقارنة بالشمال الإيطالي على شعاع الثقة الصغير في الجنوب: "جنوب إيطاليا هو موطن المافيا وسياسة الرشوة. ولا أحد يستطيع أن يفسر الاختلاف بين شمال إيطاليا وجنوبها من حيث المؤسسات الرسمية"[١٦]. تقترح فرضية إنجلهارت/ويلزل أن العكس هو الصحيح، بمعنى أن الثروة هي التي تمدد شعاع الثقة، وليس العكس.

علم النمو الاقتصادي

يتعامل الاقتصاديون مع الثقافة منذ فترة ليست طويلة. تتمحور المقاربة الاقتصادية لتأثير الثقافة والمؤسسات على مجموعة كثيرة الاستخدام من الإحصاءات تعرف باسم مجموعة بيانات سمرز-هيستون[١٤]. وأنا مدين للأستاذ روبرت بارو Robert Barro الذي زودني بالرسوم البيانية من الطبعة الثانية من كتابه "النمو الاقتصادي" لتوضيح هذه البيانات.

يقوم الأسلوب الأساسي على التحليل الإحصائي المتطور لمدى واسع من العوامل التي يعتقد أنها تؤثر على النمو الاقتصادي، مثل: المستوى التعليمي، ومعدلات الخصوبة ومتوسط العمر المتوقع، ومقدار الاستثمار العام والخاص، وما إليها. وتأثيرات كل هذه العوامل يمكن أن تقاس، وهذا بدوره يترك جزءاً من النمو الاقتصادي لا يمكن تفسيره بها. ثم يربط الاقتصاديون "هذا الجزء غير المفسر" من النمو بعامل الفائدة.

إنك حتى وإن لم تكن ملماً بأسلوب الانحدار المتعدد المستخدم، فلن يصعب عليك فهم الرسوم البيانية. دعنا نفحص، على سبيل المثال، العلاقة بين نمو الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد والناتج المحلي الإجمالي نفسه المبين في الشكل رقم (١٠,٤). يوضح الشكل ارتباطاً سلبياً عالياً بين الاثنين. ومعنى ذلك ببساطة أن اقتصادات الدول

---

(١٤) سميت على اسم عالمي الاقتصاد اللذين جمعاها: روبرت سمرز Robert Summers وألان هيستون Alan Heston. تعرف هذه البيانات أيضاً باسم جداول عالم بن Penn World Tables.

الفقيرة تميل لأن تنمو أسرع من اقتصادات الدول الغنية. وبمعنى أوضح فإن الدول الفقيرة لديها ميل للحاق بالدول الغنية، كما حدث بعد عام ١٩٦٠م مع دول نمور شرق آسيا، التي شهدت معدلات نمو حقيقية بلغت ٦٪ سنوياً.

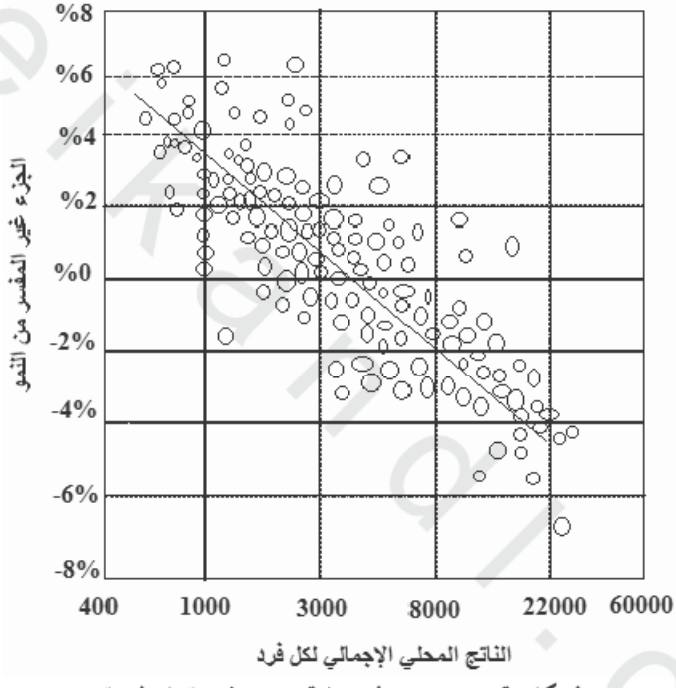

الشكل رقم (١٠,٤). النمو الاقتصادي في مقابل الثروة.

المصدر: Reproduced with permission of the authors and modified from Robert J. Barro and Xavier Sala-i-Martin, Economic Growth, 2d ed. (Cambridge, MA: MIT Press, 2004).

أعلن النقاد أن معدلات النمو العالية المستدامة التي شهدتها هذه الدول التي كانت فقيرة في البداية تعتبر "معجزات". لكنها لم تكن كذلك، كل ما هنالك أن ذلك كان مسار الأحداث الطبيعي بعد توفير الدولة الحديثة الفقيرة للأسواق المفتوحة وحكم القانون وحقوق الملكية الآمنة. تذكر أننا عرضنا هذا الفيلم في الفصل الثامن بقصة "المعجزات" اليابانية التي تلت فترة ميجي والحرب العالمية الثانية.

وبمجرد أن تقترب هذه الدول من مستوى المعيشة الغربي، يتباطأ نموها السريع. في السنوات الأولى من الحرب الباردة دفعت معدلات النمو العالية في الاتحاد السوفيتي تباهي نيكيتا خروشوف الشهير على الولايات المتحدة عندما قال "سندفنكم" (كان يتحدث اقتصادياً). لكن القلق الحقيقي من جانب المحللين الجادين في الخمسينيات والستينيات من قوة الاقتصاد السوفيتي يبدو اليوم مضحكاً تماماً، لكنها حمى جنون الحرب الباردة. وبالطبع ما كان علينا أن نقلق، لأن معدلات النمو السوفيتية العالية، على فرض أنها لم تكن زائفة، كانت تمثل مسار الأحداث الطبيعي في أمة متخلفة لكنها تنمو، وليس مسار عملاق مرتقب.

تذكر "زوجة الابن البكماء"، بمعنى أن إدخال أبسط التقنيات الحديثة في أي مجتمع ما قبل صناعي تُحدِث معجزات. بينما يأتي النمو وئيداً للدول التي تقود التقدم التقني. فمعدل النمو ٢٪ الذي يكون رائعاً في الدولة المتقدمة، يكون محبطاً للدولة المتخلفة.

لقد أكدنا مراراً على أهمية حقوق المِلكية وحكم القانون. لكن ماذا تقول البيانات التجريبية عن ذلك؟ يوضح الشكل رقم (١٠,٥) تأثير مؤشر "حكم القانون"، المأخوذ من الدليل الدولي للمخاطر International Country Risk Guide على جزء النمو "غير المفسر".

تتسم العلاقة الواقعية بالفوضى نوعاً ما لأن المؤشر يقيس قوة النظام القانوني أكثر مما يقيس الحماية التي يقدمها للمِلكية الخاصة. من ذلك على سبيل المثال أن المقياس أعطى في عام ١٩٨٢م للدولتين الشيوعيتين آنذاك المجر وبولندا تقدير ستة وخمسة على التوالي على مقياس من سبع نقاط (تقابل الدرجات ٠,٨٣ و٠,٦٧ في الشكل رقم ١٠,٥). ومع ذلك فإن الاتجاه العام واضح: تُظهِر الغالبية الساحقة من الدول ذات التقديرات العالية نمواً إيجابياً غير مفسر، وتُظهِر غالبية الدول ذات التقديرات المنخفضة نمواً منخفضاً غير مفسر. وقد أكد باحثون آخرون هذه النتائج. ومؤخراً وجد عالما الاقتصاد روبرت هول Robert Hall وتشارلز جونز Charles Jones ارتباطاً إحصائياً عالياً

بين ما أسمياه "البنية التحتية الاجتماعية" – المؤسسات والسياسات الحكومية الداعمة لحقوق المِلكية وحكم القانون – وإنتاجية العامل[١٥].

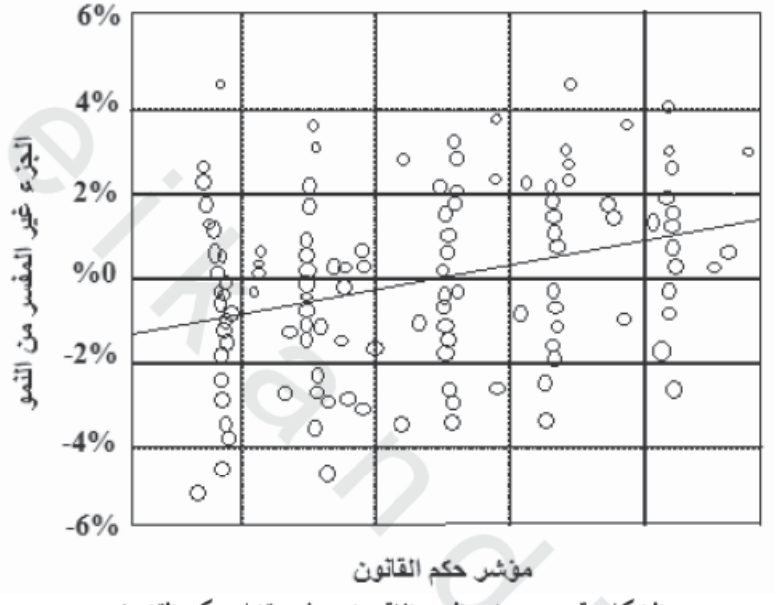

الشكل رقم (١٠,٥). النمو الاقتصادي في مقابل حكم القانون.

المصدر: Reproduced with permission of the authors and modified from Robert J. Barro and Xavier Sala-i-Martin, Economic Growth.

أجرى عالما الاقتصاد برادفورد ديلونغ Braford Delong وأندريه شلايفر Andrei Schleifer دراسة تاريخية جيدة فحصا فيها تأثير حقوق المِلكية على النمو الاقتصادي في أوروبا على مدى عدة قرون. ونظراً لصعوبة التوصل إلى بيانات سياسية واقتصادية دقيقة وطويلة المدى، استغل الباحثان البيانات المتاحة لهما على أفضل نحو. أولاً: صنف المؤلفان الحكومات الوطنية في أي قرن إلى مطلقة وغير مطلقة، على أساس أن

(١٥) وعلى مستوى الاقتصاد الكلي تتمثل "إنتاجية العامل" في الناتج المحلي الإجمالي لكل ساعة عمل، وبذلك تعتبر مقياساً ممتازاً لمتوسط الثروة. انظر e wealth. See Robert E. Hall and Charles I. Jones, "Why Do Some Countries Produce So Much More Worker Output Than Others?" Quarterly Journal of Economics 114 (1999): 83-116.

الأخيرة كانت تحمي الملكية أفضل من الأولى. وبعد ذلك قاسا الزيادة السكانية في أكبر المدن بتلك الدول كمقياس تقريبي للنمو الاقتصادي.

جاء الارتباط بين نوع الحكومة والنمو الحضري مذهلاً، حيث كان نمو سكان الحضر، دون استثناء تقريباً، أسرع كثيراً في الدول غير المطلقة عن الدول المطلقة. وقد أرجع المؤلفان التحول في المركز الاقتصادي والسكاني لأوروبا من الجنوب إلى الشمال، الذي حدث بعد عام ١٥٠٠م، لكونه النتيجة المباشرة لظهور الحكومات غير المطلقة التي تحترم المِلكية في شمال الألب[١٧].

ثمة محدِد آخر مهم للنمو، له أهمية سياسية كبيرة، يتعلق بحجم الحكومة. فنداء الحرب من أبواق اليمين السياسي يُحدِث التأثير السلبي للإنفاق الحكومي على النمو الاقتصادي. لكن ما مدى الضرر الناتج عن ذلك فعلاً؟ يبين الشكل رقم (١٠,٦) أن التأثير السلبي البسيط للحكومة الكبيرة يتضح قليلاً، وليس بالقوة التي تظهر في الشكل رقم (١٠,٥) الخاص بحكم القانون. فدون خط الاتجاه المحسوب المبين في الشكل ما كان لتأثير الحكومة الكبيرة أن يُلاحَظ.

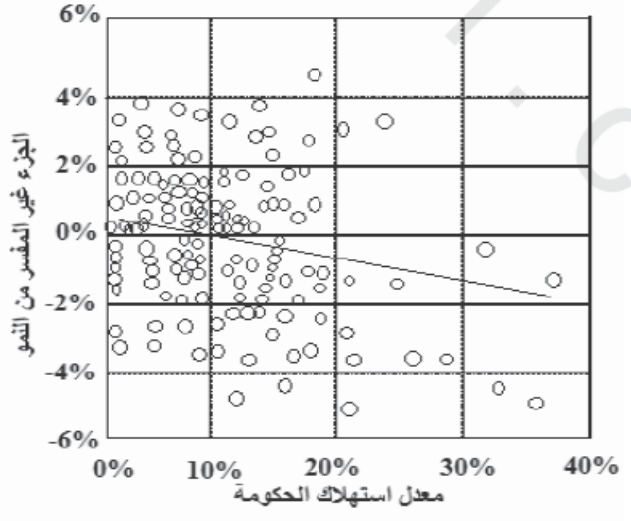

الشكل رقم (١٠,٦). النمو الاقتصادي في مقابل حجم الحكومة.

المصدر: Reproduced with permission of the authors and modified from Robert J. Barro and Xavier Sala-i-Martin, Economic Growth

لقد وجد علماء الاقتصاد علاقة أقوى بين النمو ومعدل الاستثمار، أي النسبة المئوية من الناتج المحلي الإجمالي التي يستثمرها كل من القطاع الحكومي والخاص، كما يوضح الشكل رقم (١٠,٧). يعد الارتباط الإيجابي بين النمو والاستثمار مثالاً للسببية . العكسية، إذ ينتِج النمو مزيداً من الاستثمار، وليس العكس. بحث بارو هذه النقطة إحصائياً بالنظر إلى الارتباطات المتأخرة، كتلك التي استخدمها ويلزل وإنجلهارت، للتثبت من تدفق السببية من الثروة إلى التعبير عن الذات إلى الديمقراطية. في حالة النمو والاستثمار يرتبط النمو السابق بالاستثمار اللاحق بشكل أفضل من ارتباط الاستثمار السابق بالنمو اللاحق. وبذلك يؤدي النمو إلى الاستثمار، وليس العكس[١٨]. يتفق ذلك مع النظرية التي تقول إن الأطراف الخاصة تختار أن تستثمر فقط عندما يكون النمو العالي واعداً بعائدات عالية.

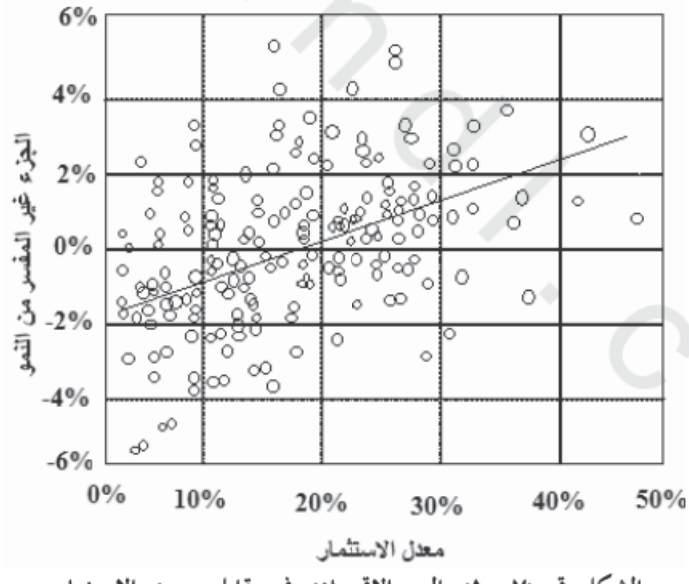

الشكل رقم (١٠,٧). النمو الاقتصادي في مقابل مستوى الاستثمار.

المصدر: Reproduced with permission of the authors and modified from Robert J. Barro and Xavier Sala-i-Martin, Economic Growth.

وأخيراً نبحث علاقة النمو الاقتصادي بالديمقراطية نفسها. إن علاقة الديمقراطية بالنمو المبينة في الشكل رقم (١٠,٨) لافتة للنظر، حيث اتخذت شكل حرف U مقلوب.

معنى ذلك أن التحول الديمقراطي يفيد إلى حد معين. فالتخلص من السمات الأثقل للشمولية يدعم النمو[١٦]. لكن عندما تدفع الحكومة المؤسسات الديمقراطية كثيراً يبدأ النمو في التراجع.

يرى بارو أن التأثيرات الضارة للديمقراطية المتقدمة تنتج عن الميول إلى امتصاص الأغنياء الكامنة في النظم الشعبوية، لكن ثمة أسباباً أخرى يصعب تخيلها. من ذلك أن الدول الديمقراطية تميل إلى دعم الصناعات الفاشلة، وتلك مشكلة تجلت بشكل خاص في أوروبا واليابان. كما تقدم المؤسسات الديمقراطية للمواطنين المحرَرين أشكالاً كثيرة من المتنفسات الخيرية والفكرية والسياسية المفيدة اجتماعياً لكنها غير منتجة اقتصادياً، وهي لا تتوفر للمواطنين في الدول الأكثر قمعاً.

يعاني الميل إلى الاستثمار أيضاً من "الديمقراطية الزائدة". يجد الاقتصاديون معدلات الاستثمار الأعلى في الدول ذات المستويات المتوسطة من الديمقراطية. بينما تميل الديمقراطيات المتقدمة جداً إلى إنقاص العائد من رأس المال، ومن ثم الحافز للاستثمار.

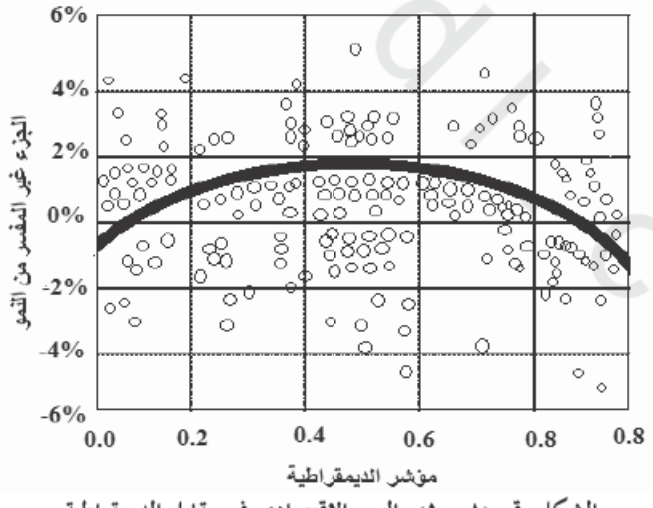

الشكل رقم (١٠,٨). النمو الاقتصادي في مقابل الديمقراطية.

المصدر: Reproduced with permission of the authors and modified from Robert J. Barro and Xavier Sala-i-Martin, Economic Growth.

(١٦) يستخدم بارو هنا مؤشر جاستل Gastil للحريات المدنية لقياس التطور الديمقراطي. انظر Raymond D. Gastil, Freedom in the World (Westport, Connecticut: Greenwood Publishing Group, 1982).

تتضح علاقة السبب والنتيجة بين النمو والديمقراطية أيضاً في بيانات بارو، التي تتفق مع بيانات إنجلهارت وويلزل، وتؤكد كذلك فرضية ليبست الأصلية: يرتبط النمو الاقتصادي السابق بالديمقراطية اللاحقة أكثر من الاتجاه المقابل للعلاقة. بمعنى أن الرخاء يعد مسؤولاً بالدرجة الأولى عن الديمقراطية، بينما لا تقدم الديمقراطية الكثير للرخاء[١٩]. وجد بارو أيضاً أن التطور الديمقراطي يمكن أن يتأخر عن الرخاء بعقود، وتقترح البيانات المتأخرة أنه في المتوسط يكون انقضاء جيل من الرخاء مطلوباً لإنتاج تحول ديمقراطي ناجح. وقد أشرنا في الفصل الثامن إلى انفجار الثروة الأسبانية في أثناء دكتاتورية فرانكو والانتقال الديمقراطي الناجح جداً الذي تلاها. وقد تجاهل المؤرخون الليبراليون هذا التسلسل للأحداث.

وبالمثل لم تتطور مؤسسات ديمقراطية قوية في شيلي وتايوان وكوريا لعقود بعد أن بدأت تلك الدول تقترب من مستوى الثروة الغربي. وتلك العملية تدور ببطء شديد، ولذلك يتطلب الحماس لفرص الديمقراطية في الصين مزيداً من التفاؤل والصبر، حتى بعد جيل تقريباً من النمو الاقتصادي السريع.

هل من شأن الخفض الضريبي وزيادة الإنفاق على التعليم وغيرها من الرشاوى الاقتصادية والاجتماعية ذات الدافع السياسي أن تزيد النمو في دولة ديمقراطية ليبرالية مزدهرة متقدمة؟ يشك بارو في ذلك:

> قد يكون ممكناً أن ترفع معدل النمو طويل المدى ببضعة أعشار من النقطة المئوية بخفض المعدل الضريبي أو الإنفاق الحكومي غير الإنتاجي أو التخلص من النظم والقواعد الضارة، [لكن] لا توجد أدلة على أن الزيادة في الاستثمار في البنية التحتية أو الإعانات البحثية أو الإنفاق التعليمي تساعد كثيراً. ومعدل النمو ٢٪ لكل فرد يبدو جيداً على المدى البعيد للدول الغنية فعلاً[٢٠].

وما جدواه إذن؟

سيبدأ القارئ النبيه عند نقطة ما في الشك في استحواذ الجوانب المادية لهذا العالم على هذا الكتاب. فما جدوى النمو الاقتصادي إذا كان نجاح الإنسان الغربي في الدنيا لا يبدو أنه قد جلب للمواطن المتوسط ولو القليل من السعادة، ناهيك عن التحقق الوجودي أو الروحي؟ لقد جلب الرخاء المتزايد معه مستويات أعلى من سوء استخدام المخدرات وعدم الأمان الوظيفي والتمزق الأسري، ناهيك عن الحسد والسخط اللذين يسودان جزءاً كبيراً من العالم الثالث، خاصة المسلم منه، تجاه الأمم الغنية الغربية. بإعادة صياغة كلام جون كينيث جالبريث John Kenneth Galbraith، نقول إن ثمة مقاييس أخرى أهم لقيمة الفرد وهدفه أبعد من السؤال "ماذا فعلت اليوم لزيادة الناتج المحلي الإجمالي للأمة؟"

تنحط هذه المناقشات غالباً، كما هو الحال مع الجدل حول مستويات المعيشة في أوائل الثورة الصناعية، إلى ملاكمة أيديولوجية حول تأثيرات العولمة والاستعمار الجديد ودور الدولة. وفي حقل الألغام السياسي من هذا النوع نكتسب البصيرة فقط من تكوين فرضيات واختبارها ببيانات موضوعية.

لقد حان الوقت لفحص العلاقة بين الثروة والسعادة عينها. هل أضرت الزيادة السريعة في ثروة الغرب بسعادة سكانه أم أفادتها؟ وبلغة أكثر صراحة هل تجعلنا كل هذه الثروة أكثر سعادة؟ وهل من الممكن أصلاً الإجابة عن مثل هذه التساؤلات؟

في العقود الأخيرة فرض علينا علماء النفس والاجتماع مقاييس واسعة الانتشار ومتطورة للرضا الإنساني. وعلى مدى نصف قرن تقريباً كانت بحوث كثيرة تراقب السعادة الإنسانية مع زيادة رخاء البشرية. ومن الأمثلة النموذجية على ذلك المسح الاجتماعي العام General Social Survey الذي يختبر قياسات اجتماعية مختلفة في الولايات المتحدة. انظر السؤال التالي من المسح:

> ماذا تقول في هذه الأيام إجمالاً، هل تقول إنك سعيد جداً أم سعيد إلى حد ما أم لست سعيداً بتاتاً؟

منذ عام ١٩٧٠م ظل عدد الأمريكيين الذين كانت إجابتهم "سعيد جداً" ثابتاً تقريباً حول ٣٠٪. وقد وفر المسح العالمي للقيم ومسوح البارومتر الأوروبي بيانات أكثر تفصيلاً وتنظيماً حول الرفاه.

علم السعادة

سيعترض الكثيرون على تطبيق بارومتر واحد للسعادة عبر النسيج الواسع لثقافات العالم المتباينة. لكن الباحثين وجدوا، على أية حال، أن كل المجتمعات تتبنى مفهوماً للسعادة وتعرفها صراحة بنفس الطريقة تقريباً. وذلك يجب ألا يفاجئنا في شيء، فكلنا في الأساس بشر.

في الجزء الباقي من هذا الفصل سنستخدم مصطلح "الرفاه" well-being بمعناه النفسي، في مقابل معناه الاقتصادي، أي باعتباره مرادفاً للسعادة. لقد وجد علماء الاجتماع أنه في كل المجتمعات تقريباً تصلح نفس المؤشرات الأربع للتنبؤ بالرفاه: الحالة الاقتصادية والتوظيف والصحة والحالة الأسرية[٢١]. ومن بين العوامل المتعلقة بالأسرة تثبت الحالة الزوجية أنها الأهم. وبعيداً عن كوميديا آخر الليل، نجد أن المتزوجين، كمجموعة، أكثر سعادة بكثير من العزاب. والبطالة تسبب الحزن، حتى في حال توفر دخل كافي من موارد أخرى، بمعنى أن التأثيرات الضارة للبطالة على الرفاه مستقلة عن الدخل. فتجريد العامل من عمله سيجعله في المتوسط أقل سعادة كثيراً، حتى لو تم تعويضه عن دخل وظيفته بالكامل. وبتعبير أحد الباحثين، فإن "قدراً هائلاً من الدخل الإضافي يكون مطلوباً لتعويض الناس عن فقد العمل"[٢٢].

تتمتع المقاييس الكمية للسعادة، علاوة على ذلك، بقيمة حقيقية كأدوات تنبؤية. فالأفراد ذوي الدرجات العالية في السعادة يقل بينهم حدوث الأمراض النفسية-الجسمية وفقدان العمل، وطول عمر فوق المتوسط، وحتى نشاط أعلى من العادي في الموجات الدماغية بالمنطقة الجبهية اليسرى[٢٣].

ثمة اعتراض آخر كثيراً ما يرفع في وجه مسوح السعادة، وهو أنها لا تراعي الترجمات الثقافية واللغوية المختلفة لمصطلحي "سعيد" و"راض". توفر سويسرا مختبراً رائعاً لدراسة هذا الأمر لسكانها الناطقين بالألمانية والفرنسية والإيطالية. توضح البيانات أن المجموعات اللغوية الثلاث جاءت درجاتها في السعادة أعلى كثيراً من أبناء عمومتهم الثقافيين في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا. يستبعد ذلك أن تكون اللغة تلعب دوراً كبيراً في مسوح السعادة، على الأقل بين القوميات السويسرية الثلاث المختلفة[٢٤].

إن الضغط السياسي والعسكري يحزن الناس هو الآخر. وقد أوضحت دراسات كثيرة هبوطاً في الرفاه في الولايات المتحدة بين أواخر خمسينيات وأوائل سبعينيات القرن العشرين، على الأغلب بسبب توترات الحرب الباردة. وفي أواخر السبعينيات، ومع بدأ انحسار شبح المعركة الفاصلة النووية، عاد الرفاه إلى مستويات خط الأساس[٢٥]. ورغم ذلك فعندما يستخدم اختبار إحصائي متطور لفصل هذه السمات المهمة، تظل الحالة الاقتصادية دافعاً قوياً للسعادة والرفاه.

شكك بعضهم أيضاً في العلاقة السببية بين الحالة الاقتصادية والسعادة. أليس ممكنا أن يصبح السعداء هم الأكثر نجاحاً؟ لا. أولاً: في كل المجتمعات التي أُخضِعت للدراسة يُعرّف الناس الثروة على أنها مهمة لسعادتهم. ثانياً: يبين الهبوط المثير الأخير لمتوسط الرفاه المقاس في دول ما بعد الشيوعية التي مرت بأزمة اقتصادية أن الفقر يسبب الحزن، وليس العكس.

هل ما زلنا نستمتع؟

يبين الشكل رقم (١٠,٩) اتجاه الرفاه المدرك في أربع دول تمثل أوروبا على مدى ربع قرن، بين عامي ١٩٧٣م و١٩٩٨م. يظهر الشكل النسب المئوية للمستجيبين من هذه الدول الذين وصفوا أنفسهم بأنهم "راضون جداً" (في مقابل "راضون إلى حد ما" أو "غير راضين إلى حد ما" أو "غير راضين على الإطلاق").

من المدهش أن الأوروبيين لم يصبحوا أكثر سعادة كثيراً في فترة زاد فيها الناتج المحلي الإجمالي الحقيقي لكل فرد بحوالي ٦٠٪. وربما كان المثير بدرجة أكبر هو

الاختلافات المتطرفة بين الدنماركيين الذين قال ٦٠٪ منهم إنهم راضون جداً، والإيطاليين الذين لم يقل ذلك إلا حوالي ١١٪ منهم فقط. يقع البريطانيون في منتصف الطريق تقريباً بين الاثنين. يوضح الشكل رقم (١٠,٩) أيضاً أن البلجيكيين ازدادوا اكتئاباً خلال ربع القرن المذكور. ماذا كان مصدر هذه الكآبة؟ ربما تتعلق الإجابة بانفجار التوترات الثقافية واللغوية (الناطقون بالفرنسية في مقابل الناطقين بالهولندية) في بلجيكا في العقود القليلة الماضية، بما أنتج جهازاً سياسياً أكثر انقساماً. يشبه ذلك الهبوط الذي لوحظ في السعادة في الولايات المتحدة في أثناء الحرب الباردة وفي عالم ما بعد الشيوعية بعد عام ١٩٩٠م.

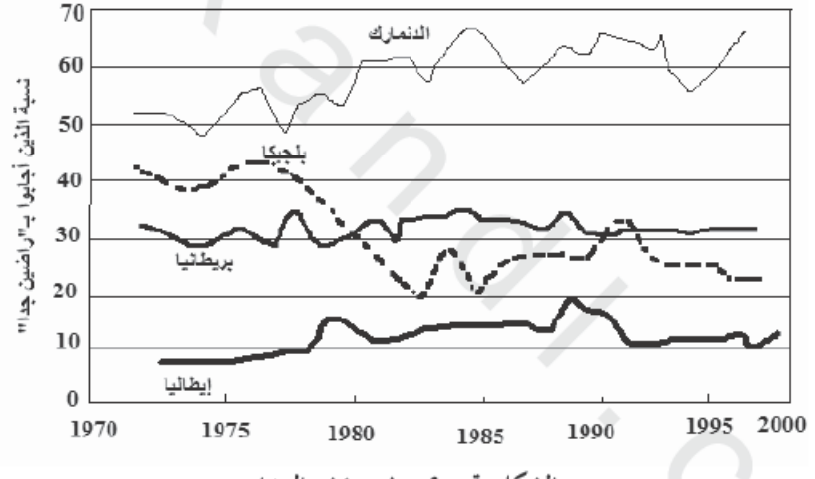

الشكل رقم (١٠,٩). مؤشر الرضا.

المصدر: Data from Ronald Inglehart and Hans-Dieter Klingemann, "Genes, Culture, Democracy, and Happiness," in Culture and Subjective Weil-Being, E. Diener and Mark Suh, eds. (Cambridge: MIT Press, 2000), 167.

لا يمكن أن يفسر علماء الاجتماع هذه الاختلافات بين الدول بالاقتصاد وحده، ذلك أن الفجوات في معدل الثروة لكل فرد بين هذه الدول الأربع ظلت صغيرة نسبياً طوال هذه الفترة. ومن المؤكد أن ثمة عوامل ثقافية تلعب دوراً. تفسر القوالب النمطية – الدنماركي المبتهج والبلجيكي الصارم – قدراً من الاختلافات، لكن تظل الدرجات المنخفضة للإيطاليين المتحمسين ظاهرياً مفاجأة لنا بعض الشيء.

تقدم اليابان المثال الأوضح لفشل المال في شراء السعادة. فبين عامي ١٩٥٨م و١٩٨٧م، وهي فترة تضاعف فيها الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد في اليابان خمسة أضعاف، لم يتزحزح مقياس السعادة الياباني[٢٦].

الأمم الحزينة والأمم السعيدة

إننا نحصل على منظور مختلف للسعادة حين نفحص العلاقة بين الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد ومتوسط الرفاه المُدرَك. يصور الشكلان رقما (١٠,١٠) و(١٠,١١) مقياسا آخر للرضا، وهو عبارة عن مؤشر مركب من السعادة والرضا من المسح العالمي للقيم، وذلك في مقابل الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد. يتضح من ذلك أنه على مدى واسع نسبيا ترتبط الثروة الوطنية بطريقة فضفاضة بالمزاج الوطني.

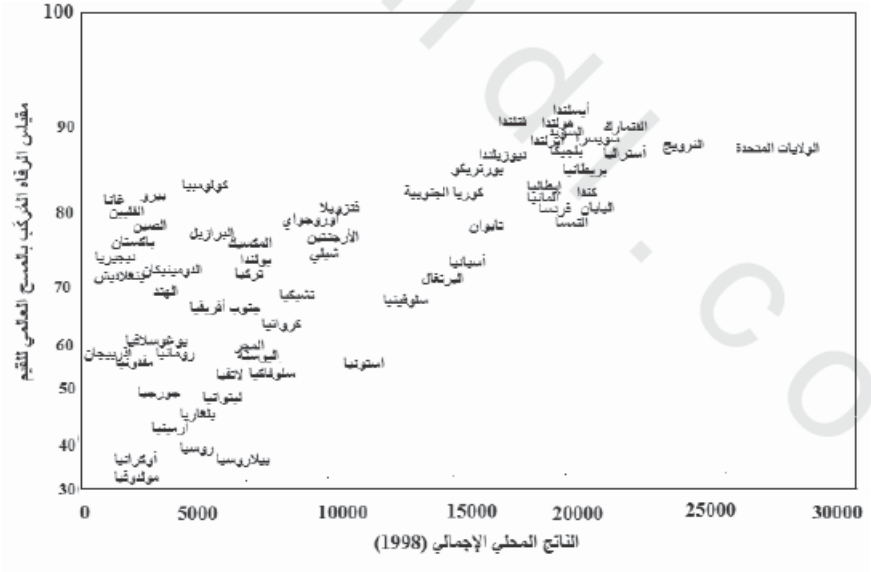

الشكل رقم (١٠,١٠). الرفاه في مقابل الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد.

المصدر: Data from Ronald Inglehart and Hans-Dieter Klingemann, "Genes, Culture, Democracy, and Happiness," in Culture and Subjective Weil-Being, 172-73 and Maddison, The World Economy: A Millennial Perspective, 264, 276-79.

يوضح الجانب الأيسر من الشكل رقم (١٠,١٠) انتشاراً واسعاً للسعادة بين الدول الفقيرة يرجع إلى تضمين دول ما بعد الشيوعية. وعندما نستبعد دول ما بعد الشيوعية، التي واجه معظمها هبوطاً كبيراً في السعادة نتيجة للتدهور المفاجئ للظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية، يصبح الارتباط أشد، كما يوضح الشكل رقم (١٠,١١). والدول الشيوعية السابقة التي اجتازت الانتقال الأنجح إلى اقتصاد السوق والديمقراطية – كبولندا وجمهورية التشيك والمجر– كانت درجات السعادة فيها تحت المدى الغربي، لكنها مع ذلك كانت أعلى من درجات أقرانها الشيوعيين السابقين.

الشكل رقم (١٠,١١). الرفاه في الدول غير الشيوعية في مقابل الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد.

المصدر: Data from Inglehart and Hans-Dieter Klingemann, "Genes, Culture, Democracy, and Happiness," in Culture and Subjective Well-Being, 172-73 and Maddison, The World Economy: A Millennial Perspective, 264, 276-79.

تقترح أدلة متناثرة أن التدهور في المزاج الوطني في دول ما بعد الشيوعية مسألة حديثة نسبيا. ففي منطقة تامبوف Tambov الروسية، على سبيل المثال، انخفضت درجة السعادة المركبة من ٧٠ إلى ٣٩ بين عامي ١٩٨١م و١٩٩٥م. أما المجريون الذين واجهوا

اضطراباً اجتماعياً واقتصادياً أقل بكثير من الروس فقد انخفضت درجاتهم أقل كثيراً، من ٧٤,٥ في عام ١٩٨١م إلى ٦٢ في عام ١٩٩م٠، قبل أن ترتفع بعض الشيئ إلى ٦٥ في عام م ١٩٩٨م[٢٧].

إن تأثير الثروة الوطنية على الرفاه الوطني المبين في الشكل رقم (١٠,١١) صغير نسبياً. فلا يُظهِر الجانب الأيمن من الشكل الذي يعرض الدول ذات الناتج المحلي الإجمالي للفرد الأعلى من ١٥٠٠٠ دولار أية علاقة بين الثروة والسعادة، وتحت هذا المستوى فقط تصبح الثروة عاملاً مؤثراً[١٧]. وكما لاحظنا سابقاً، توضح البيانات أن الثروة الوطنية والرفاه الوطني مرتبطان بطريقة فضفاضة فقط. فالكولومبيون، على سبيل المثال، أكثر سعادة من النمساويين، رغم الفارق البالغ أربعة أضعاف في الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد.

الرفاه بالرطل

تؤثر الثروة على الرفاه كثيراً داخل الأمم. في دراسة بعد أخرى، يثبت المواطنون الفرديون الأكثر غنى أنهم الأكثر رضا، والمواطنون الأفقر أنهم الأقل رضا، دون استثناء. يعرض الشكل رقم (١٠,١٢) الفارق الكبير في السعادة بين أكثر المواطنين غنى وفقراً في اثنتي عشرة دولة ممثلة.

(١٧) سيدرك العارفون بالاقتصاد أن منفعة الثروة لوغاريتمية، بمعنى أن السعادة تكتسب فقط مع الزيادات الهندسية في الثروة. والمقياس الحسابي المستخدم على الإحداثي السيني في الشكلين ١٠-١٠ و١٠-١١ يشوه هذا التأثير، حيث إن الزيادة النظرية في السعادة المتحصلة بزيادة الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد من ١٥٠٠٠ دولار إلى ٣٠٠٠٠ دولار تكون فقط واحد من خمسة عشر من تلك التي حصلها التايلنديون بالانتقال من ١٠٠٠ دولار إلى ١٥٠٠٠ دولار.

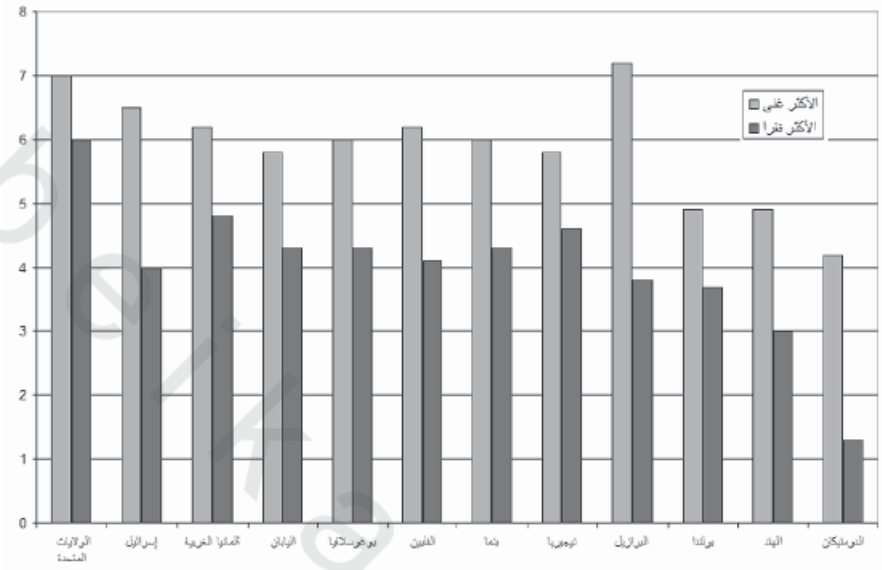

الشكل رقم (١٠,١٢). التقدير الشخصي للسعادة في مقابل الثروة.

المصدر: Data from H. Cantril, The Pattern of Human Concerns, 365-77.

يحلل الشكل رقم (١٠,١٣) هذه الظاهرة بتدريجات دخل صغيرة، في هذه الحالة في الولايات المتحدة في عام ١٩٧٣م. لاحظ العلاقة المتدفقة والخطية المنحنية، حيث إن الزيادات في السعادة تكون على أشدها مع الدخول الضعيفة، ثم تتناقص تدريجياً مع الدخول الأعلى. فسر بعض علماء الاجتماع هذا النوع من الرسوم البيانية، وكذلك الغياب الظاهر لتأثير الثروة على السعادة في الدول الغنية الذي لوحظ في الشكل (١٠,١٢).، بأنه إثبات لفكرة "تأثير العتبة". بمعنى أنه عندما يتم بلوغ مستوى دخل معين (٨٠٠٠ دولار في السنة في هذه الدراسة، عام ١٩٧٣م)، تُلبَى حاجات البقاء والأمان، ولا تؤدي الزيادات الأكثر في الثروة إلى تحسن أكثر في الرفاه.

لكن ذلك ليس واقع الحال بالتأكيد. فالاقتصاديون يفترضون منذ فترة طويلة أن الناس يدركون الثروة "لوغاريتمياً"، وفقاً للزيادات المتكافئة في الدخل. فهم يقولون نظرياً إنك يجب أن تكتسب زيادة مماثلة في الرفاه في كل مرة يزيد دخلك بقدر معين.

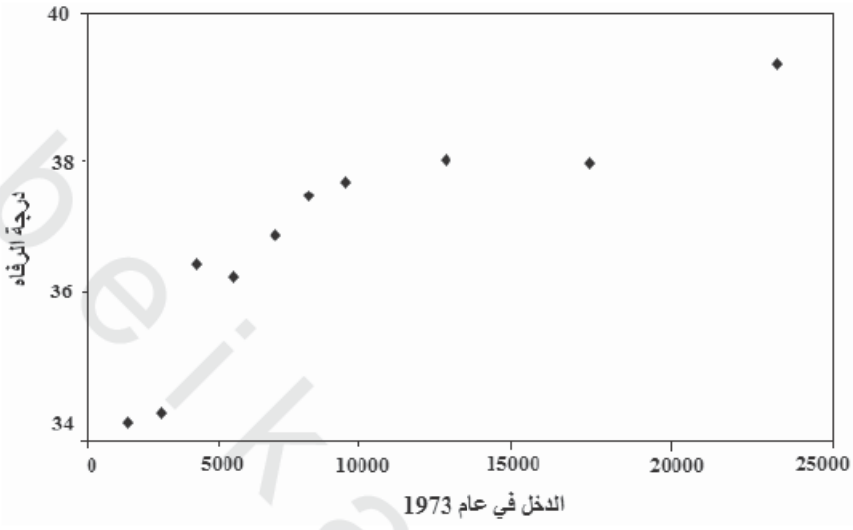

الشكل رقم (١٠,١٣). الدخل في مقابل السعادة في الولايات المتحدة عام ١٩٧٣م.

المصدر: Data from Ed Diener et al., "The Relationship Between Income and Subjective Weil-Being: Relative or Absolute?" Social Indicators Research 28 (1993): 208

بمعنى أنك إذا حصّلت زيادة معينة في السعادة بمضاعفة دخلك من ٥٠٠٠٠ دولار إلى ١٠٠٠٠٠ دولار، فإنك ستحصل زيادة مماثلة بمضاعفته مرة ثانية إلى ٢٠٠٠٠٠ دولار. يبين الشكل رقم (١٠,١٤) أن ذلك هو الحال فعلاً، ولعلها من الأمثلة النادرة التي يتصرف فيها البشر كما يتوقع الاقتصاديون. هذا الرسم البياني يماثل الرسم البياني الوارد في الشكل رقم (١٠,١٣)، باستثناء أنه يمثل الثروة لوغاريتمياً على الإحداثي الأفقي، في مقابل التمثيل الحسابي التقليدي في الشكل رقم (١٠,١٣). وعموماً فقد كان الاقتصاديون محقين، حيث يزداد الرفاه بلوغاريتم الثروة.

المال يشتري السعادة إذن، لكن بمعنى نسبي فقط. فالثروة المطلقة تؤثر بدرجة أقل من الثروة نسبة إلى جيرانك. وفي ذلك يقول كارل ماركس:

> إن البيت نفسه قد يكون كبيراً أو صغيراً. فطالما أن البيوت المحيطة صغيرة مثله، فإنه يرضي كل المطالب الاجتماعية للمسكن. لكن إذا ارتفع قصر بجانب البيت الصغير، سينكمش البيت الصغير إلى كوخ[٢٨].

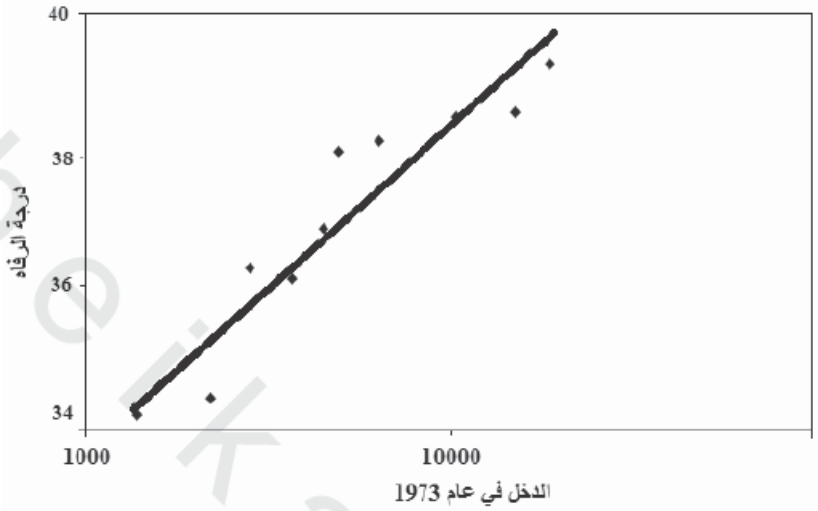

الشكل رقم (١٠,١٤). الدخل في مقابل السعادة في الولايات المتحدة عام ١٩٧٣ (مقياس لوغاريتمي).

المصدر: Data from Ed Diener et al., "The Relationship Between Income and Subjective Well-Being: Relative or Absolute?" Social Indicators Research 28 (1993): 208.

عديلك[١٨]

أو كما عبر هـ ل مينكن H. L. Mencken بطريقة لاذعة، فإن الإنسان الغني هو الذي يكسب أكثر من عديله[١٩].

على أن الطريقة التي نحدد بها نظراءنا تكتسب أهمية كبيرة. حيث يقيس كل الناس ثروتهم في المقام الأول في مقابل ثروة أصدقائهم وجيرانهم. فالشخص الذي

---

(١٨) العديل هو زوج أخت الزوجة، ومن الواضح أن الغيرة والتنافس بين العدلاء، وكذلك السلائف، أي زوجات الأشقاء، ظاهرة عالمية عابرة للثقافات [المترجم].

(١٩) إن التالي أكثر من مجرد نكتة: يحتمل أن تعمل المرأة ٢٠٪ أكثر إذا كان زوج أختها يكسب أكثر من زوجها. انظر David Neumark, and Andrew Posdewaite, "Relative Income Concerns and the Rise in Married Women's Employment," University of Pennsylvania, unpublished data, 1996. وهناك وصف آخر أكثر حدة لهذه الظاهرة يقدمه المؤرخ الاقتصادي تشارلز كيندلبيرغر: "لا شيء يعكر رفاه المرء وحكمه أكثر من رؤيته صديقاً يغتني". انظر Kindleberger, Manias, Crashes, and Panics, 4th ed. (New York: John Wiley & Sons, 2000), 15.

يكسب ١٠٠٠٠٠ دولار سنوياً في جماعة ريفية مهملة اقتصادياً يحتمل أن يكون أكثر سعادة بكثير من شخص يكسب نفس المبلغ – حتى مع تعديله لأعلى من أجل القوة الشرائية – على الجانب الشمالي الشرقي من مانهاتن[٢٠]. ينطبق "تأثير الجار"، الذي يعتبر أحد اللبنات الأساسية للطبيعة البشرية، على مجالات كثيرة أخرى. يصف عالم الاقتصاد بول كروغمان Paul Krugman حزنه كأكاديمي محترم ذي مرتب جيد ووظيفة آمنة في واحدة من أكبر جامعات العالم:

> كانت لدي وظيفة لطيفة جداً بمرتب جيد، وكنت أتلقى دعوات كثيرة لحضور مؤتمرات حول العالم. ومقارنة بـ٩٩.٩٪ من البشر لم يكن لدي ما أشكو منه. لكن هذه الحياة ليست، بالطبع، الطريقة التي رُكّب بها الحيوان البشري. فقد كانت مجموعتي المرجعية الانفعالية تتكون من أنجح علماء الاقتصاد من جيلي، وأنا عموماً لم أكن أُحسَب ضمن عددهم[٢٩].

ربما تعمل الاتصالات الحديثة على تحطيم الطبيعة المحلية "لتأثير الجار". حتى خمسين عاماً مضت نجح ستالين وماو في عزل ربع سكان العالم عن معرفة فاقتهم. واليوم ربما تكون كوريا الشمالية آخر دولة على الأرض تستطيع أن تمارس هذه الخدعة المروعة. وفي مجتمع معولم لأقصى درجة تكتسب ثروة من يعيشون على البعد أهمية حقيقية. فهي تقرب كل شيء من البيت، حيث تزيد الوسائط الحديثة وعي سكان الأحياء الفقيرة أو حتى أعضاء الطبقة الوسطى المرتاحين بفقرهم مقارنة بأساليب الحياة السائدة بين الأغنياء والمشهورين التي لن يتمكنوا أبداً من بلوغها. وفي الخارج لا بد أن قاطني الشارع العربي يواجهون يومياً مواطن الضعف المادية في أسلوب حياتهم مقارنة بالغرب.

---

(٢٠) لكن البيانات لا تتفق جميعها مع هذه الفرضية. فدينر وآخرون، على سبيل المثال، أخفق في إثبات تأثير نسبي للثروة. لكنهم أخفقوا أيضاً في إثبات الفرضية البديلة، التي تقول بأن الرفاه يرتبط بإشباع حاجات البقاء المطلقة. انظر Ed Diener et. al., "The Relationship Between Income and Subjective Well-Being: Relative or Absolute?" Social Indicators Research 28 (1993): 208.

ليس من المبالغة أن نقول إن الأغنياء بيننا هم سبب حزننا. وكلما زاد غناهم وقربهم، سواء أكان واقعياً أم إلكترونياً، زاد شعورنا بالبؤس. وإذا كان ذلك صحيحاً، فإن المجتمعات الأقل تفاوتاً في الثروة لا بد أن تكون هي الأكثر سعادة. هل هذه هي الحال فعلاً؟ نعم. فالدول التي تأتي على قمة مقياس الرفاه الذاتي المُجمّع بالمسح العالمي للقيم – آيسلندا وهولندا والدنمارك وسويسرا وفلندا والسويد وأيرلندا والنرويج – تتبنى جميعها سياسات ضريبية تعمل على إعادة توزيع الثروة وتضيّق توزيعات الدخل.

ثمة طريقة جيدة لقياس "تأثير الجار" تقوم على حساب نسبة دخل أولئك الذين يقعون عند المئيني التسعيني إلى أولئك الذين يقعون عند المتوسط، أي المئيني الخمسيني. يبين الشكل رقم (١٠,١٥) مقياس الرفاه في المسح العالمي للقيم في مقابل هذا المقياس. يشير خط الاتجاه الهابط إلى ارتباط سلبي فضفاض بين التفاوت في الثروة والسعادة. توجد تحليلات أكثر تطوراً، كتلك التي عرضناها حول مجموعة بيانات سمرز–هيستون، توضح نفس الظاهرة[٣٠].

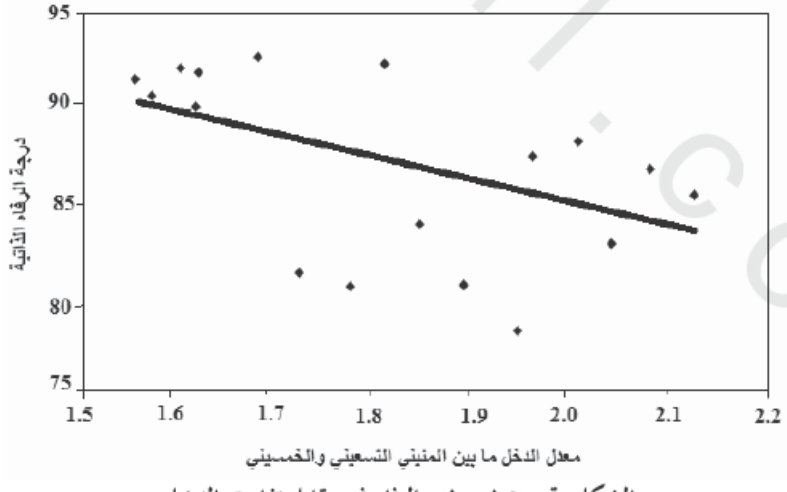

الشكل رقم (١٠,١٥). الرفاه في مقابل تفاوت الدخل.

المصدر: Data from the Luxembourg Income Study, http://www.lisproject.org/keyflgures/ineqtable.htm, and Ronald Inglehart and Hans-Dieter Klingemann, "Genes, Culture, Democracy, and Happiness," in Culture and Subjective Weil-Being, 172-73.

وحتى داخل الدولة الواحدة تؤثر الدرجات المختلفة لتفاوت الدخل على السعادة. يوفر تنوع المنظمات التعاونية بإسرائيل مختبراً لدراسة دينامة السعادة – تفاوت الدخل. في عام ١٩٧٧م قامت مجموعة من علماء الاجتماع بالجامعة العبرية بالقدس بدراسة جمعيتين تعاونيتين. تدفع الأولى التي تُدعى "إيسوس"، لكل أعضائها بالتساوي، بينما تدفع الثانية التي تُدعى "أنيسوس" لأعضائها وفقاً للإنتاج والدرجة الوظيفية. جاءت درجة كانتريل Cantril المتوسطة، التي تقيس السعادة على مقياس من صفر إلى عشر، ٧,٨٨ في إيسوس و٧,٢٥ في أنيسوس[٣١].

ومع أن هذا الفارق صغير، فقد كان يعد نتيجة هامة جداً لعدة أسباب. أولاً: تجمعت تقديرات كانتريل بإحكام في كلتا المجموعتين، بما جعل هذا الاختلاف دالاً إحصائياً. على سبيل المثال، أعطى ٢٠٪ من أعضاء إيسوس لأنفسهم "عشرة" كاملة على مقياس كانتريل، بينما لم يفعل أحد من أعضاء أنيسوس ذلك. ثانياً: كان المهاجرون الأمريكيون الجنوبيون يهيمنون على عضوية إيسوس، بينما كان الأوروبيون يهيمنون على أنيسوس. وحيث إن الأمريكيين الجنوبيين يميلون إلى إحراز درجات أدنى من الأوروبيين على مقاييس الرفاه والتعبير عن الذات، فإن الدرجة الأعلى للرفاه في جماعة إيسوس التي يهيمن عليها الأمريكيون الجنوبيون مثيرة بوجه خاص. ثالثاً: كان أعضاء أنيسوس أفضل تعليماً من أعضاء إيسوس وهو عامل يرتبط أيضاً بالسعادة. وأخيراً: كان متوسط الدخل في أنيسوس أعلى بثلث من إيسوس. وكون المؤشرات الأربعة السابقة هي التي جعلت قاطني أنيسوس أكثر سعادة يؤكد أننا لسنا سعداء[٣٢].

هيا نلخص ما سبق:

- داخل الأمة أو المجتمع الواحد تعد الثروة محدِداً مهماً للسعادة، لكنه ليس الوحيد.
- عبر الأمم ينطبق ذلك بدرجة أقل، حيث ترتبط الثروة الوطنية ارتباطاً ضعيفاً بالسعادة الوطنية، وعلى المستوى العالمي تصبح العوامل الثقافية والتاريخية أكثر أهمية.

- إن الطبيعة النسبية لإدراك الثروة – تأثير الجار – تحول دون أن تؤدي الزيادات في الثروة الوطنية الكلية الناتجة عن النمو الاقتصادي إلى زيادة سعادة الأمم. ورغم أن أغنى مواطني الأمة هم أكثر أبنائها سعادة، فإن تأثير الجار يفرض على الأمة ككل ألا تصير أكثر سعادة عندما تزداد غنى. وكذلك لا تصبح الأمة أكثر حزنا عندما تزداد غنى. فثمة تأثير كبير لرفاق درب الإنتاجية الزائدة: الطلب الزائد على الوقت والضغط وانخفاض الأمن الوظيفي (قد يجادل البعض بأن الثروة المتزايدة تجعل الناس أكثر سعادة، لكن ذلك تنقضه ضغوط الحياة الحديثة). لذلك أثار عالم الاقتصاد ريتشارد إيسترلين Richard Easterlin في عام ١٩٩٥م السؤال البلاغي: هل زيادة دخول الجميع ستزيد سعادة الجميع؟ إن الإجابة "لا" بوضوح[٣٣]. فما هو جيداً للفرد ليس بالضرورة جيدا للأمة ككل.

الفقر والثروة: أهداف متحركة

يعيش الإنسان الحديث فيما يشبه "طاحونة المتع". فالدول عندما تزداد غنى لا بد أنها تنتج كميات متزايدة من السلع والخدمات للحفاظ على نفس درجة الإشباع بين مواطنيها[٣٤]. يقدم وصف انتُزع قبل جيل من مزارع هندي دخله ١٠ دولار شهرياً مثالاً توضيحياً بسيطاً لطريقة عمل هذه الظاهرة:

> أريد ابنا وقطعة أرض لأنني أعمل الآن في أرض يملكها آخرون. وأود أن أبني بيتا لنفسي وتكون لدي بقرة لأستفيد من حليبها وزبدها. وأحب أيضاً أن أشتري لباساً أفضل لزوجتي. وإذا استطعت أن أفعل ذلك، سأكون سعيداً[٣٥].

لاحظ أن المزارع لم يذكر حتى الأجهزة الحديثة التي يعتبرها سكان العالم الثالث اليوم أساسية للسعادة، كالثلاجة والتلفزيون والدراجة البخارية. فإطاره المرجعي المادي كان مختلفاً عن إطار نظرائه الحديثين، تماماً كما يختلف إطار الفلاح الصيني الحديث عن الإنسان الغربي المتوسط.

وإذا كان مفهوم الثروة هدفاً متحركاً، فتعريف الفقر يكون على نفس الشاكلة. فأفقر الأمريكيين اليوم أثرياء جداً بمعايير عام ١٥٠٠م، وفي غضون خمسمائة سنة

أخرى سيبدو الغربي المتوسط اليوم عفَنا من الفقر والهمجية. وعلى ذلك فإن السؤال عما إذا كانت نسبة سكان العالم الذين يعيشون في فقر تزداد أو تنكمش لا بد أن يُعدَل إلى: هل نقصد الفقر بالمعنى المطلق أم الفقر بالمعنى النسبي؟

إننا نربح المعركة ضد الفقر بالمعنى المطلق. فكما رأينا في الفصل الأول، حتى لو استبعدنا الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد لكونه عديم المعنى، فقد تحسن متوسط العمر المتوقع ومعرفة القراءة والكتابة ومعدلات وفيات الأطفال بين أتعس شعوب الأرض بدرجة مثيرة خلال العقود الكثيرة الماضية، كما اختفى شبح المجاعة الجماعية بدرجة كبيرة من الكرة الأرضية قبل نصف قرن. (وقعت آخر المجاعات الجماعية الكبيرة في العالم في الصين والهند في منتصف القرن العشرين، وكانت من صنع يد الإنسان أكثر منها طبيعية. وقد خفّت حدة المجاعات الأحدث في أفريقيا جنوب الصحراء بفضل النظام الدولي للتجارة والمساعدات الذي يدعمه النقل الحديث).

لكن من الواضح أننا نخسر المعركة ضد الفقر بالمعنى النسبي. فقد تزايدت الفجوة بين أغنى دول العالم وأفقرها وتفاوت الثروة داخل الدولة الواحدة بدرجة مثيرة في القرن الماضي. ولن يجد الفقراء والمدافعون عنهم عزاء في حقيقة أن الدخول الحقيقية لأفقر الناس بالمجتمع ارتفعت فعلاً وأن نوعية حياتهم تحسنت في العصر الحديث.

يعتمد هذا التنوع الحديث للفقر، إذن، على درجة تشتت الدخل، التي لا نستطيع أن نحسّنها إلا بإعادة توزيع الثروة. فالتسوية الإجبارية للدخل، في حدود، ستقلل الفقر وتحسّن رفاه المجتمع ككل، لكننا بذلك سنضحي ببعض النمو. سنبحث في الفصل التالي المبادلة بين النمو والمساواة الاقتصادية، ونفحص كيف عولجت على جانبي الأطلسي.